مغمورون ولكن!

تعليقات على كتاب

[المغمورون الثلاثة]

للمؤرخ مبارك الخاطر

بقلم

أحمد بن عبد الله الحمدان

فَرَغْتُ منذ مدةٍ من كتاب (المغمورون الثلاثة) لمبارك الخاطر؛ وهو كتابٌ يُصنَّف من كتب التراجم، أي أنّ مبارك الخاطر ترجم فيها لثلاث شخصيات من علماء البحرين أو أدباءها، ممن اعتبرَهم (مغمورين) ولم يُسلّط الضوء عليهم كما يجب، والخاطر ليس هذا أول كتبه في التراجم، بل أفردَ مؤلَّفاتٍ عن أشخاص بأعيانهم، رأى أنه كان لهم بالغُ الأثر أو استطاع الحصول على معلومات أكثر -لقرب العهد- فاستطاع أن يُفرِدَهم في مؤلَّفٍ مُستقل، ومن تلك الشخصيات الشيخ القاضي (قاسم المهزع) والصحفي (عبد الله الزايد) والمؤرّخ (ناصر الخيري) إلا أنّ الأخير وجد الخاطر صعوبةً في الحصول على معلومات عنه كما ذكر ذلك في مقدمة الكتاب رغم أنه عاصرَ أصحابه!

صحيح أنّ مبارك الخاطر لم يَجرِ على النسق التقليدي في تراجم المشايخ؛ فأحياناً تكون التراجم قائمة على مجرد الرواية في غالب الأحيان، وهذا تراه في كتاب (**سِيَر أعلام النبلاء**) للذهبي، فيروي الترجمة بناءً على روايات تم تناقلها من شخص إلى آخَر إلى أن وقف عليها الذهبي أو رُوِيَت له، و في الزمن المتقدّم لم يُعهد على العلماء أو الأئمة أن يترجموا لذواتهم؛ ربما لاعتبارات متعددة منها، الخوف من الوقوع في مدح الذات وهو أمرُ مستقبَح -كما يقول عبد الله الهدلق[1]، ولكن حركة الترجمة الذاتية قد نشطت في فترة لاحقة؛ وكان هذا الباب قد كُسر، وقد جمع الشيخ بكر أبو زيد هذه التراجم في مؤلف في هذا أَسْماه (**العلماء الذين ترجموا لأنفسهم**).

أسلوب الخاطر في الترجمة هذا الكتاب هو جمع المواد المكتوبة عنهم (لأنهم لم يكتبوا عن أنفسهم) ومحاولة تعضيدها بروايات شفهية تَسُدُّ الفراغات في هذه

[1] انظر: حوار مع عبد الله الهدلق، قناة الدليل ، برنامج مداد، الرابط: https://youtu.be/uOwcux1sr_8 .

السيرة؛ ثم استعراض بعض نتاج هؤلاء الشخصيات، ولعل كان هذا أوضح في قصائد الشاعر عبد المحسن الصحّاف (المسلماني).

وجُهد الخاطر في تدوين تراجم علماء والمشايخ المنتسبين إلى أهل السُنّة جُهدٌ مباركٌ، خاصةً مع وجود الفجوة في تراجم العلماء والمشايخ المنتسبين إلى أهل السُنّة في البحرين، وقد حاول البعض ردمها مثل المؤرّخ بشار الحادي في كتابه (**علماء وأدباء البحرين في القرن الرابع عشر الهجري**)، ولكنّ الخرقَ واسعٌ، وقد حكى الدكتور محمد رفيق طرفًا من معاناة عدم الاعتناء بالتراجم؛ إلى درجة أنه وقف على وثائق تَذكرُ أنّ الشيخ (فلان بن فلان) قاضيًا، فهو لا يمتلك معلومات عن هذا الشيخ سوى أنه كان قاضيًا، ولكن أين كان قاضيًا، وكيف تتلمذ في طلب العلم، وما هي سيرته الحياتية أو العلمية؟ لا يوجد أي إجابة، بل بقيت في حكم المجهول.

ومبارك الخاطر يرفع السقف أكثر، ويقول إنّ المشكلة ليست في عدم وجود تراجمَ لأشخاصٍ تعلموا في نظام تعليم إسلامي مثل الكتاتيب، بل المشكلة أنه هذا النظام التعليمي لم يجد أحدًا يكتب عنه أو يؤرّخ له رغم مرور قرن ونصف على ازدهاره في البحرين!

فتراه يقول: «**غير أنّ ما يؤسَفُ له أن مع زخم ذلك المناخ العلمي والتعليمي الذي استمر قرناً ونصف القرن، لم يتهيأ لأحد من أولئك المستفيدين منه أو المعاصرين له على امتداد مساحته الزمنية أن يؤرّخ له أو يُدوِّن له أو لبعض فتراته، عدا ترجماتٍ لبعض رجاله فيها**».

فمشكلتنا مُركّبةٌ: أساسها عدم التدوين سواءٌ في النظام التعليمي أو الرجالات التي برزت من خلاله.

وثم يجب الاعتراف أنّ الشيعة في البحرين كانوا سبّاقين في باب التراجم والسِيَر، فحفظوا تراجم الكثير من علمائهم في البحرين وفي فترات مبكرة جدًا، ومن بين أقدم وأشهر هذه الكتب كتاب (**لؤلؤة البحرين**) ليوسف البحراني (تـ:١١٨٦هـ)، ثم أتى البلَادي (ت:١٣٤٠هـ) بعده بقرنين وصنّف كتابه الشهير (**أنوار البَدرَيْن ومطلع النَّيِّرَيْن تراجم علماء القَطيف والأحساء والبحرَيْن**)، وكتابة التراجم في بعض الأحيان لا تنحصر في ذكر أحوال الشخص المتُرجَم له بل تمتد إلى ذكر أحوال البيئة التي عاش فيها والتي قد تتطرق إلى ذكر طرفٍ من المعلومات التاريخية والجغرافية، وقد دوّنت بعضها أثناء تصفحي لكتاب البلَادي المذكور.

وأمّا النموذج على قلة المعلومات فتجدها في ترجمة أحد الشخصيات الثلاثة التي تكلم عنهم الخاطر في كتابه هذا، وهو الشاعر عبد الله الجامع (تـ: ١٢٧٨هـ) فلا توجد إلا قصيدتين أو ثلاث للشخص المذكور، أمّا بقصية قصائده فكما يقول الخاطر نفسه: «**أمّا شعر الشاعر فإنّ ما وصل إلينا منه قليل جدًا، ربما أنّ الشاعر مُقِلٌ فيه أو أنّ يد الزمان قد عَبَثَت به فضاعَ أكثره**»؛ فمن المحرج أن تترجمَ لشاعرٍ ولا تملك له إلا النَّزْرَ اليسيرَ لقصائده، ويُستثنَى من ذلك الشاعر الذي لم يُعرَف إلا بقصيدة قد بلغت الآفاق وكانت هي رأس ماله، مثل ما حصل مع نورة الحوشان وقولها في البيت الشهير:

اِلِّي يَبِينَا عيَّت النفس تَبْغيهِ

واللي نَبِيهْ عَيَّا البَخت لا يِجِيبَهْ[٢]

واندثار الشعر لعدم التدوين وجمعه في ديوان والاكتفاء بتناقله هو مما ذكره ابن سلام الجمحي (ت:٢٣٢هـ) في سبب فقدان أو ضياع أغلب الشعر الجاهلي كما قال في مقدمة كتابه (**طبقات فحول الشعراء**)[٣]، وهذه الآفة لا زالت إلى اليوم، فعادةً يَضيع الشعر لأنّ الشاعر ومَن حوله لم يهتموا في جمع وتدوين أشعاره، فجمعُ مَن حول الشاعر لا يقل أهمية عن جمع الشاعر نفسه؛ وهذا تراه ماثلًا في حالة الشاعر محمد الجميلي الذي ذكر في أحد أشعاره أنّ الأمريكان أحرقوا ديوانه الذي جمع فيه كل قصائده أثناء حرب الفلوجة[٤]، ثم أخبرنا شقيقه أنّ الديوان المطبوع بعنوان (**شظايا الكلم**) قد جمعَ الجميلي محتوى قصائده القديمة من تلاميذه! بمعنى لو لم يكن هؤلاء التلاميذ لَمَا عُرِفَ من شعر الجميلي إلا القصائد التي قيلَت بعد حرق هذا الديوان.

---

[٢] انظر: محمد الشرهان، برنامج سالفة: الشاعرة نورة الحوشان، قناة البوادي، ٢ ديسمبر ٢٠٢٠، الرابط: https://youtu.be/4nIeQ__gwWY

[٣] يقول ابن سلام: «**فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والرُّوم، ولهَت عن الشعر وروايته. فلما كَثُر الإسلامُ، وجاءت الفتوحُ، واطمأنَّت العربُ بالأمصار، رَاجعوا روايةَ الشِّعر، فلم يَؤُولُوا إلى ديوانٍ مُدَوَّن ولا كتابٍ مكتوبٍ، وألفُوا ذلك وقد هلكَ من العرب مَن هلكَ بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عليهم منه كثيرٌ**». [انظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، ص٢٥].

[٤] وذلك في قوله:

أحرقْ بنار الحقدِ كلَّ قُصاصةٍ ... أودعتُ في طيَّاتها أفكاري

سُحقًا لمن وَأَدَ القصيدةَ ملْبِسًا ... أحقادَه بوِشايةٍ من جاري

انظر: محمد سعيد الجميلي، شظايا الكلم، أفق للدراسات والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠١٨، (ص١٥٢).

وأحياناً يكون هؤلاء الأصحاب سببًا في ضياع القصائد لا حفظها، يحكي مبارك العماري سبب ضياع مواويل الشاعر المحلي حسين بو رقبة فيقول: «**أوكل حسين بو رقبة إلى بعض أصدقائه بتدوين مواويله التي ينظمها في دفاتر أو أوراق احتفظ بها عنده. غير أنه بعد وفاته -كما أفاد نجله عيسى- أخذ بعض أصدقائه يأتون إلى منزله يطلبون تلك الدفاتر والأوراق الواحد تلو الآخر، وتفرق إنتاجه بين شتى الأيادي ولم نحصل على أي من آثاره تلك**»[٥].

وأحسب، بل أظنّ أن أبرز الذين كانت لهم جهودٌ جبّارةٌ في جمع القصائد وتتبّعها وحفظها في بلادنا، هو المؤرّخ مبارك العماري، فالكثير من الشعراء لم تصدُر لهم دواوين وقد حرص مبارك العماري أن يجمع كل ما تطالُهُ يَدُهُ من مَرويات ومخطوطات لإصدار بعض الدواوين لهم، كما صنع مع الشاعر الشيخ لحدان بن صباح الكبيسي، وحسين بن علي بن مشرف التميمي وغيرهم ممن لا زالت أعمالهم مخطوطات لم ترَ النور بعض مثل ديوان الشاعر الذي سوف نتكلم عنه في هذا الكتاب وهو عبد المحسن الصحاف (المسلماني).

والشعر المدوَّن المخطوط الذي يُنقَلُ من في الشاعر سواء بتدوينٍ ذاتي أو إملاء؛ أَضبَطُ من المرويات الشفهية التي تُنقَلُ عنه عبر امتداد العقود والقرون، والتي قد يطالها التحريف والتبديل والزيادة والحذف، وهذا تراه في شعر راكان بن حثلين العجمي لمّا استقر في البحرين، فيُنقل عن الشيخ خالد بن محمد آل خليفة أنّ

[٥] مبارك العماري، حسين بورقبه، المطبعة الحكومية لوزارة الإعلام البحرين، الطبعة الأولى: ١٩٨٦، (ص٢٤).

أشعار راكان التي نشرت في ديوان (روضة الشعر) إنما كُتبت أخذًا من راكان مباشرةً[٦]، فهي أَضبطُ الروايات في هذا الباب.

وإن كانت ثمة نصيحة أُقدّمها لبعض الشعراء لحفظٍ أفضلَ لمَوَادّهم، فهي بثّها في المواد المطبوعة، سواء الصحف والمجلات والكتب أو جمعها في دواوين، بخلاف إلقائها في المجالس؛ فالحُفّاظ في تناقص، والاهتمام بالشعر يقِلُّ طبقةً إِثْرَ طبقة، وأن تكون أنتَ الناشرُ لكلامك خيرٌ وأضبطُ في المصداقية من أن يَنقُلَ عنك الآخَرون.

والحفظ في المواد المكتوبة أقوى منه من حفظها في مواد مرئية أو صوتية، فبعض المواد المرئية أو المسموعة التي تُحذَفُ من الصعب العثور عليها، خاصةً مع تقادم الزمن.

***

وإذا عدنا إلى الشاعر (عبد الله بن جامع) فهو من أسرة آل جامع العلمية[٧] فقد عُرِفَت هذه الأسرة بالعلم الشرعي وبأخذهم للمذهب الحنبلي[٨] وهذا لم يذكره الخاطر؛ لا عن الأسرة ولا عن الشيخ الشاعر عبد الله بن جامع، وهذا أمرٌ لا يخفى على الخاطر إذ أنّ هذا الأمر قد ذكره هو بنفسه في أحد أول كتبه (**قاسم بن**

---

[٦] انظر: مبارك العماري، برنامج وطر مضى: راكان بن حثلين (الحلقة الخامسة)، قناة البحرين، ٨ ديسمبر ٢٠١٦، الرابط: https://youtu.be/0dqWygUDRyU

[٧] وقد ذكر الخاطر بعض الأُسَر العلميّة التي انتقلت من الزبارة الى البحرين بعد طرد آل مذكور منها ودخول آل خليفة إليها، وفاتته أسرةٌ واحدةٌ تعاقبت في القيام بالأمور الدينية من خطب ودروس وتعليم للقرآن والرقية في منطقة الرفاع وهي أسرة الشيخ بن درويش، والتي لا زال لها ذكرٌ ووجود.

[٨] محمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المؤسسة العربية للنشر والدراسات والمكتبة الوطنية، الطبعة الثانية: ٢٠١٠، (ص٤٨).

مهزع: القاضي الرئيس)، فقال: «**وإنَّ بعض القادمين كذلك من هم من الحنابلة؛ كالعلماء من بيت ابن جامع**»[٩]، فلا يُعرَف لماذا سقط هذا الأمر أثناء كلامه عن الشيخ عبد الله في هذا الكتاب! كما أنه لم يذكر نَسَبَ هذه الأسرة كما صنع مع أسرة آل نبهان، فَنَسَبُهُم يرجع إلى الأنصار من الخزرج[١٠]، رغم أنّ هذا الأمر ذكرته المراجع نفسها التي اعتمدَ عليها الخاطر في ترجمته وهو كتاب (**علماء نجد خلال ثمانية قرون**)[١١].

هناك أيضًا إشكالاتٌ تتعلق بالمراجع، مثل قول الخاطر في سياق الكلام عن مؤلفات ابن جامع: «**إلا أنّ المصادر التي بين أيدينا كسبائك العَسجد والسُحُب الوابلة ونزهة الأفراح -كما ذكرنا- لم تنقل لنا شيئًا من تلك الكتابات**».

يظهر لي حقيقةً أنّ مبارك الخاطر قد اعتمد على كتاب (**علماء نجد**) لابن بسام (ت: ٢٠٠٢م)، والذي كان مؤلفه ينقل عن مؤلَّفاتٍ سابقة، وهذا واضح إذا رأيت ثَبت المراجع؛ فستجد أنه يعزو القول إلى ابن حميد (ت: ١٨٧٨م) صاحب مؤلف (**السُحُب الوابلة**) ولكن في الهامش تراه يعزو إلى كتاب (**علماء نجد**)، وهذه إشكالية تَبرزُ لبعض المؤرّخين، وأحياناً الناقل أو الناسخ يُسقط أموراً ويُثبت أُخرى، فلا بُدّ عليك أن ترجع إلى الأصل وتُطابق، ومن هذه الأمور التي سقطت وأظنّ لو وقف عليها الخاطر لَوَقَفَ على أبياتٍ لابن جامع لم يعرضها

---

[٩] انظر: مبارك الخاطر، القاضي الرئيس قاسم بن مهزع، المطبعة الحكومية بوزارة الإعلام في البحرين، الطبعة الثانية: ١٩٨٦، (ص٥٠).

[١٠] انظر: بشار الحادي، علماء وأدباء البحرين في القرن الرابع عشر الهجري، بيت البحرين للدراسات والتوثيق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥، (ص٤٣٩)، وحمد الجاسر، جمهرة أنساب الأُسَر المتحضّرة في نجد، منشورات دار اليمامة، الطبعة الثالثة: ٢٠٠١، (ص٨٩).

[١١] انظر: عبد الله بن عبد الرحمن آل بسّام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الطبعة الثانية: ١٤١٩، (٤/ ٣٠٦).

وذلك في قول ابن حميد في الهامش: «**تنبيه: ذكر صاحب نَفحة اليمن في صحيفة ١٤٠ من النفخة مساجلاتٍ شعريةٍ بينَه وبين صاحب الترجمة عبد الله بن عثمان بن جامع، والمؤلف هو أحمد بن محرر الأنصاري اليمني الشرواني وهو صاحب كتاب (حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح) وقد ترجم الشيخ عبد الله بن عثمان بن جامع صاحب الحديقة في صحيفة ١٠٤ من حديقته فافهم**»[١٢].

وفي كِلا الكتابين (**نفحة اليمن بما يزول بذكره الشجن**)[١٣] و (**حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح**)[١٤] قد أورد فيها المؤلف -الشرواني (ت: ١٨٣٧م) - أبيات لم يعرضها الخاطر في كتابه. وربما لو كان قد وقف على نص ابن حميد هذا لحرث الأرض حرثًا في سبيل البحث عن مؤلَّفَي الشرواني هَذين، وكل هذا بسبب خطأ الاعتماد على التراجم التي يُظَنُّ أنها جامعةٌ لِمَا قبلها، ولكنها في الحقيقة مُختَصَرٌ لها.

والشيخ عبد الله بن جامع كانت ترجمته من أقصر التراجم في الكتاب؛ وذلك لبُعد العهد به، فأغلب المراجع التي اعتمد عليها الخاطر فيها فهي المراجع المكتوبة، لا الروايات الشفهية التي يبدو أنه لم تسعفه. فقد ولد صاحب الكتاب بعد وفاة هذه الشخصية بـ ٧٢ سنة وهي فترةٌ زمنية لا بأس بها؛ فالمؤلف عاش في زمن أحفاد المترجم له -إذا أخذنا بتقسيم ابن خلدون للأجيال-، فقد تكون المعلومات شحيحة، كما أنه لم يأخذ أيَّ معلومةٍ من أسرة الجامع حول هذه الشخصية كما هو مُبيَّن في ثَبت المراجع.

---

[١٢] محمد بن عبد الله ابن حميد النجدي، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، مكتبة الإمام أحمد، الطبعة الثانية، (ص٢٥٨).

[١٣] انظر: أحمد بن محمد الأنصاري اليمني الشرواني، نفحة اليمن بما يزول بذكره الشجن، مكتبة سيد محمد عبد الواحد الطوبي، الطبعة الأولى: ١٣٢٤، (ص١٤٢-١٤٣).

[١٤] انظر: أحمد بن محمد الأنصاري اليمني الشرواني، حديقة الافراح لازاحة الأتراح، مطبعة عثمان عبد الرزاق، ١٣٠٢، (ص١١٠).

ونلاحظ أنّ كافة المراجع ذكرت أن للشيخ عبد الله بن جامع مؤلفاً واحداً وهو (**الفوائد المنتخبات في شرح أخصر المختصرات**) في الفقه الحنبلي، وهو شرحٌ على كتاب ابن بِلبان الدمشقي الحنبلي (ت: ١٠٨٣ هـ)، لذلك تستغرب من قول صلاح الجودر[١٥] أنّ لديه أكثرَ من مؤلَّف، ومن بينها كتاب (**تأسيس التقديس في الرد على ابن جرجيس**) وهو نفس عنوان كتاب للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين (ت: ١٨٦٥م)، وقال كذلك أنّ له كتابٌ آخَر بعنوان (**الانتصار في الرد على ابن جرجيس**) وهو قريب من مؤلَّف آخَر للشيخ عبد الرحمن أبا بطين بعنوان (**الانتصار لحزب الله الموحّدين، والردُّ على المجادل عن المشركين**)، ثم لمّا تتبعت بقية الأسماء وجدت أنها كلها لأبا بطين!

وأظن لو أنّ مبارك الخاطر قد وقف على هذا الكتاب الوحيد الذي ألَّفه ابن جامع أو الوحيد الذي وصلنا، لاستطاعَ أن يعرف مُعتَقَدَهُ، فهو قطعًا ليس سلفيّ التوَّجه، بل كان يصف الشيخ محمد بن عبد الوهاب بـ«**طاغية العارض**»[١٦]، وفي حين قد يُفهم منه أنه متصوّفٌ على الطريقة المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١ هـ)؛ لأنه لا يُصدّر اسمه إلا بقوله «**شيخنا قدّس الله روحه**»[١٧]، ولكن هذا ليس بلازم؛ فربما هذا التعظيم لكون هذا الشيخ حنبليَّ المذهب أيضًا.

ولكنّ هذا الكتاب ظل مخطوطاً ولم يُطبع إلا في الفترة الأخيرة في سنة ٢٠٠٣م، أي بعد وفاة الخاطر نفسه.

---

[١٥] انظر: صلاح الجودر، الزبارة وعلماء آل جامع، صحيفة الأيام البحرينية، عدد ٤٢٩٧ تاريخ ٨ ديسمبر ٢٠٠٢م

[١٦] عثمان بن عبد الله بن جامع الحنبلي، الفوائد المنتخبات في شرح أخصر المختصرات، تحقيق عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣، (٢٠٧)، وقد أزال محقق الكتاب هذا الوصف من المتن.

[١٧] الفوائد المنتخبات في شرح أخصر المختصرات، (ص٢٠٥).

***

أمّا الشخصية الثانية الشيخ (خليفة النبهاني) والثالثة الشاعر (عبد المحسن الصحّاف)؛ فهذه الشخصيات لها بُعدٌ آخَر يستحقّ التأمل والوقوف عنده، وهي أنّ المعيار لصعود الشخص في بلدٍ ما هو قدرته ومهارته وإتقانه واحتياج البلاد إليه، دون النظر في أصله وجنسيته، فلا يُقال كيف تُعينون هذا الرجل في هذا المنصب بهذا البلد وهو ليس من أهلها! فيبدو أنّ تلك الاعتبارات لم تَشتدَّ كاشتدادها في زماننا الحالي؛ وبنحو ذلك ذكر الشيخ علي الطنطاوي ترشح البعض لمناصب كبيرة في سورية رغم أنهم ليسوا سوريين، بل رشحوا لكفاءتهم[١٨]، وهذا ليس حِكرًا في بلد ما، فتجد مثلاً في مصر تقلّد مشيخة الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين تونسي الأصل.

فالشيخ خليفة النبهاني والشاعر عبد المحسن الصحّاف لم يبزُغ نجمهم في بلادهم البحرين، بل بزغَ في الحجاز وفي مكّة تحديدًا، والشيخ خليفة النبهاني ولد في المحرّق سنة ١٨٥٢م، وهو ينتمي إلى أسرة آل نبهان، التي لا زال لها وجود في البحرين إلى اليوم، وقد حكى مبارك الخاطر نسبهم وهو أنهم يعودون إلى طيء، وهذا مُثبتٌ في كتب محمد بن خليفة النبهاني المؤرخ (ابن الشيخ المترجم له) الذي قال عن نسب عائلته: «**أنهم منسوبون لنبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء**»[١٩]؛

[١٨] مثل ترشح الشيخ الليبي عبد الغني الباجقني لتولي منصب مفتي المالكية في دمشق. [ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة ودار ابن حزم، الطبعة السابعة: ٢٠١١، (٢/ ٢٢٣)]، ومر عليَّ غير ذلك في الذكرات ولكن لم أدوّنه للأسف، ومن الصعب استقصائه؛ لأنّ الشيخ علي الطنطاوي ينثر كلامه عن الأشخاص في كل موضع بسبب تشعبه وتفرع الحديث لديه في الموضوع الواحد، ولذلك يصعب تتبعه.

[١٩] محمد بن خليفة البهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المطبعة المحمودية، الطبعة الثانية: ١٩٢٣، (ص١٦٩).

وقد كان للمؤرّخ النبهاني عنايةٌ بالأنساب وله كتابٌ أظنّه لم يُطبَع وهو (**مؤنس العرب تذييل سبائك الذهب في أنساب العرب**) ولعله تعليقاتٌ على كتاب محمد أمين البغدادي (ت: ١٨٣٠م)، والناس عمومًا مؤتَمَنون على أنسابهم، بل وإثبات نَسَبه الطائي كان حتى من تلميذ تلميذه محمد سعيد الشافعي[٢٠]، إلا أنّ في محاضرة للدكتور محمد رفيق عن الشيخ خليفة البنهاني والتي أسماها بـ(**من دواعيس المحرّق إلى محراب الحرم**)؛ ذكر نقلًا عن أحد كبار عائلة النبهان في قطر أنّ أصولهم من عُمان، وهذا قد يكون له وجهٌ من الصحة، باعتبار أنّ النبهاني نفسه يقول عن تَفَرُّق أُسرَته: «**فنزل بعضهم اليمامة، وبعضهم استوطن بَرَّ قطر، وقسمٌ منهم سكنوا عُماناً، (وكانت جدود المؤلف) ممن نزلوا أخيرًا بَرَّ قطر**»[٢١].

ولكن هؤلاء الذين نزلوا بَرَّ قطر هم الذين انتقلوا مع آل خليفة إلى البحرين بعد طرد آل مذكور منها، فيبدو أنّ مَن أخبر الدكتور محمد رفيق ليس من هذه الحمولة، وإنما أتى متأخرًا إلى قطر من عُمان.

ولكن أصلهم البعيد ليس من عُمان وإنما من الحائل كما يقول المؤرّخ محمد بن خليفة النبهاني نفسه.

وفي أثناء المحاضرة، علّق الدكتور عيسى أمين بأنّ في عُمان وجدت الدولة النبهانية، وكأنّ الدكتور محمد رفيق استحسن هذا الربط بين الأمرَيْن، وهذا غير

---

[٢٠] محمد سعيد بن محمد ممدوح الشافعي، تنشيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية: ١٤٣٤ هـ، (١/ ٣٧١).

[٢١] التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، (ص١٧٠).

صحيح؛ لأنّ معناه أن نسبهم يرجع إلى أَزد عمان من العتيك -كما هو حال ملوك الدولة النبهانية-[٢٢] وليس إلى طيء.

وتَفَرُّق آل نبهان من طيء في الأمصار -كما قال النبهاني- كان مع حركة الفتوح الإسلامية، بينما وجود الأَزد في عُمان كان قد بدأ بعد انهيار سَدّ مأرب؛ أي قبل الإسلام[٢٣].

وثانيًا تشابه الأسماء لا يلزَمُ منه أنّ النسب واحدٌ، فأنا من الحمدان ولا علاقة لي بالدولة الحمدانية في الشام.

فالمعرفة الأوليّة في الأنساب مهمةٌ في ضبط المعلومة التاريخية، وحتى لا يحصل نوع من التداخل أو الخلط.

***

وهذه الشخصية -أعني خليفة النبهاني- لها غيرُ تَرجمةٍ، من بينها ترجمة ابنه محمد بن خليفة النبهاني في كتابه (**التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية**)، وكذلك تلميذ تلميذه محمد سعيد الشافعي وهو يُترجم لشيوخ شيخه محمد بن ياسين الفاداني (ت:١٩٩٠م) في كتاب أسماه (**تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع** أو **إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر**)؛ فما الداعي إلى الكتابة عنها من جديد من وجهة نظر الخاطر؟

---

[٢٢] سالم بن حمود بن شامس، العنوان عن تاريخ عُمان، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ٢٠١٥، (ص٢٢٦).

[٢٣] محمد الرفاعي، دراسة وتلخيص لكتاب (الأنساب) لسلمة بن مسلم العوتبي الصحاري، المطابع العالمية روي، الطبعة الأولى: ١٩٩٥، (ص١٠٢).

يقول الخاطر: «**ومع شمول هاتين الكتابتين في الترجمة للشيخ خليفة النبهاني إلا أنها لم تتطرّقا لحياته الأولى في البحرين التي قضاها في مرحلتي الطفولة والفتوة، ولا لحياته وأنشطته العلمية في زياراته الطويلة المدد والمنتظَمة التي كان يقوم بها من مَهجره في الحجاز إلى بلاده البحرين، كذلك لم تأتِ هاتان الكتابتان بدراسة لشخصية الشيخ خليفة أو أعماله**».

فمن الجيد عدم الاكتفاء بما كُتب إن كان لديك إضافة عليه. ولكن ما هي إضافات الخاطر الحقيقة على ما سبق ذكره؟

تتمثّل فقط في إضافة صفحتين (صـ٣٨-٣٩) من روايةٍ شفهيةٍ أخذها من تلميذ الشيخ خليفة وهو جاسم محمد الدغاث الخليفة. وذكر تلاميذه وشيوخه الذين في البحرين.

فللأسف لم يوفّق مبارك الخاطر في جعل كتابة يُغني عن غيره من التراجم عن الشيخ خليفة، فمثلًا لم يأخذ بكل ما كتب في تلك التراجم الأخرى ورتبها في ترجمته هو، بل أخذ أمورًا واستَبعَدَ أُخرى، فلم يكن كتابه مُغنيًا عن غيره أو جامعًا لِمَا قبله بالإضافة إلى ما كتبهُ هو.

وفي أصل الترجمة يُعد ما ذكره الخاطر من إضافات = أمرٌ ثانوي في أغلبه إذا استثنينا ذكر المشايخ والتلاميذ، فالمهم والأصل في الترجمة لعالِم أو شيخ أن تذكر على مَن درس وماذا درس، ورحلته في طلب العلم، وما يتعلق بالجانب الشرعي من عبادةٍ وزُهدٍ ووَرَعٍ ونحو ذلك، أمّا هواياته وكيف كان يقضي وقته فهذا زيادةٌ على الأصل.

***

حسنًا وإذا رجعنا إلى سيرة الشيخ نفسه، نستشفّ منها بعض الأمور التي يُستَحسَنُ التأكيدُ عليها ومن ذلك: إذا رأى الأب في ابنه نباهةً فَلْيَبْذِل ما يستطيع من مالٍ ودعمٍ لهذا الابن لتنتفعَ منهُ الأُمّة، وهذا ما حصل مع الشيخ خليفة النبهاني عندما رأى والده حَمَدَ النبوغَ فيه؛ قامَ على إرساله إلى مكّة للتعلّم، وكان حَمَدٌ النبهاني كثيرَ العيال قليل المال؛ ومع ذلك أرسل ابنه مع ما في تكاليف السفر مع مشقّة وضغطٍ مالي على الأب.

وكان نبوغ الشيخ خليفة النبهاني عجيبٌ، فهو الفقيه والفلكي والرُبّان، بل حتى في شأن الغوص، كانت له بصمة، فكانت البحرين تُعرف بالغوص من أجل اللؤلؤ، وكان الشيخ خليفة النبهاني في مسكنه الأول في البحرين بَرَعَ في شأن الغوص، واستطاع أن يستفيد من هذه البراعة عندما كان في مكّة ووقعت حادثةٌ ما؛ وهي وفاة أحد الحجاج وسقوطه في عين أو بئر زَبيدة، وقد استعان ولاة الأمر آنذاك بالغوّاصين من جدة ولم يُفلحوا في انشال الجثّة، فبدأ هو بالغوص، وينقل عنه شاهد عيان وهو عمر عبد الجبار في كتابه (**سِيَرٌ وتراجم**) ما يلي: «**فأخرج الغريق وأخبر الغَوَّاصين بوجود أوساخ في قاع البئر وأرشدهم إلى الطريقة الفنية للوصول إلى قاع البئر فغاصوا على ضوء إرشاداته ونظَّفوا البئر مما فيها من دِلَاء وشَرَحَ لهم ولطلابه وصف البئر**...»[٢٤]، وكان وصفهِ يُخالف وصف بعض المؤرّخين مثل الأزرقي وغيره، وليس مَن رأى كمن سمع. بل بات وصفهُ مصدرًا يُنقل عنه ويُعتمَدُ ويُقدَّم على غيره، فَرُبَّ ضارةٍ نافعة.

[٢٤] عمر عبد الجبار، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، دار تهامة، الطبعة الثالثة: ١٩٨٢، (ص١٠٢).

***

وثمَّة ملاحظات على منهج المؤرّخ مبارك الخاطر في ترجمته هذه:

منها أنه أسقطَ جملةً من الشيوخ الذين ذكروا أنّ الشيخ خليفة تتلمذَ عليهم، وذكر خمسة فقط في الحجاز، رغم أنّ العدد أكبر من ذلك ولهم ذكرٌ في مراجع كان الخاطر يستشهدُ بها، فمثلًا في كتاب (**إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر**) تجده ذكر ١٢ شيخًا متوزّعين بين مكّة والمدينة، بل وذكر ما أخذ الشيخ خليفة على يدهم، وعلى مَن أخذ النحو والفقه وعلى مَن أخذ التفسير وعلى يد مَن أخذ الحديث والفلك.

أمّا في كتاب (**سِيَرٌ وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر**) فقد كان عددهم ١٤ شيخًا.

ولكن تجد أنّ ثمة طريقة قام بها الدكتور محمد رفيق في تقريب عدد شيوخ خليفة النبهاني، وهو الوقوف على الرواة الذين روى عنهم، وبذلك استطاعَ حصرَ شيوخ خليفة النبهاني على وجه التقريب من خلال رواية الحديث من النبهاني نفسهِ عن شيوخه.

فمثلاً في كتاب (**فَيض المبدي بإجازة الشيخ محمد عوض منقش الزبيدي**)؛ تجد الرواة الذين روى عنهم الشيخ خليفة النبهاني، أنّ عددهم ٥٠ رجلًا[٢٥]؛ فإذا سَلَّمنا جدلًا بأنّ هؤلاء الخمسين هم كُلُّهُم شيوخه، فيكون عدد شيوخه خمسين لا

[٢٥] محمد ياسين الفاداني المكي، فيض المبدي بإجازة الشيخ محمد عوض منقش الزبيدي، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٩، (ص٣١-٣٢).

خمسة! أي أنّ الرقم تضاعف أضعافاً مضاعفةً عن الرقم الذي وضعه مبارك الخاطر، **وكان الوصول إلى هذه النتيجة سببها الإلمام بشيءٍ من علوم الحديث، فالعلوم تتداخَلُ، وتوضّح بعضها بعضًا.**

وتجد في سلسلة الأشياخ والتلاميذ تنوّعًا مذهبيًا عجيب، فالشيخ خليفة النبهاني (مالكي) وقد تتلمذ على يد الشيخ عباس بن صديق (مفتي الأحناف)، وتتلمذ على يده الشيخ محمد ياسين الفاداني (الشافعي)، فيبدو أنّ مكّة آنذاك كانت بعيدةً عن التعصّب المذهبي.

كما أنّ من خلال معرفة الجو العام العلمي استطاع الدكتور محمد رفيق أن يُبرز علم الشيخ خليفة النبهاني، فمثلًا ليس كل أحد يستطيع أن يدرس في الحرم -كما كان الشيخ خليفة النبهاني-، بل كان عليه -كما يقول الدكتور محمد رفيق- أن يجتاز امتحاناً في اثني عشر علمًا من علوم الشريعة، ويكون شفهيًا، وقد يطول الامتحان إلى ساعات، حتى يتأكّد ويطمئنّ قلب الممتحِن أنّ هذا الشخص مؤهّلٌ للدراسة في الحرم، وهذا الأمر لم يذكره الخاطر؛ بل اكتفى بالقول إنه بات يدرس في الحرم. **فالبحث عن جذر المعلومة يعطيك إضافة مهمة لها.**

ولعله يُنتقد على الخاطر أيضًا عدم التوسّع في الاستقصاء، وذلك من خلال ضَرْبَيْن:

الأول: عدم البحث عن الذين قد يُقدّمون إضافةً حقيقيةً كتلاميذ الشيخ أو مَن تتلمذ عليهم، فمثلًا تكلم الخاطر عن تلامذة الشيخ ثم قال: «**وقد عُرِفَ الشيخ خليفة النبهاني بأنه شاعر مُقِلٌّ جدًا، ولكنه شاعرٌ ناظمٌ وليس بمطبوع الشعر،**

وأكثر شعره مدائح نبوية، وعُمِّر حتى ناهز التسعين ولم يصلنا شيءٌ من شعره»، هذه مفارقةٌ غريبةٌ أن لم يستطع أن يقف على شيءٍ من شعره، رغم أنّ مبارك الخاطر أدرك تلاميذ النبهاني أو كان معاصرًا لجُلِّهم بل لأبرزهم، نشر مثلًا الخاطر كتابه في سنة ١٩٨٩م أي قبل أن يُتوفَّى محمد ياسين الفاداني تلميذ الشيخ الأبرز في سنة ١٩٩٠م! ومؤكّد أنه بقي لسنوات وهو يعمل على جمع مادة الكتاب، فكان بالإمكان أن يلتقي بالفاداني أو غيره أثناء ذلك ويستزيد منهم.

ولاحظ أنّ الدكتور محمد رفيق رغم أنه لم يدرك في بحثه تلاميذ الشيخ؛ وقد أدرك الطبقة الذين بعدهم، إلا أنه استطاع الوقوف على بعض الآثار له أو شيء من الأشعار، مثل الأبيات التي وجدها عند الشيخ الفلكي صالح العجيري رحمه الله، والذي التقى به الدكتور محمد رفيق ونقل له شيئًا من أشعار النبهاني التي سمعها عبر واسطة إذ لم يدرس على الشيخ خليفة النبهاني -وإن عاصره- وإنما دَرَسَ على يد أبناءه أحمد ومحمد، وظلت هذه الأبيات في ذاكرته مذ ذلك الوقت إلى أن سجّلها الدكتور محمد رفيق له وهو يقولها.

ولعل كانت هناك ثمة مزيةٌ للدكتور محمد رفيق؛ إذ كان هو والشيخ خليفة النبهاني كلاهما يَسبحان في نفس المجال وهو العلم الشرعي، فلعل الاستقصاء والسؤال كان أسهل، فهو يعرف مَن يسأل وعلى مَن يَطرق، لذلك وقف على أشخاص لم يستطع الخاطر أن يلتقي بهم أو ربما لم يعلم أنّ لديهم ما يُفيد لبحثه.

والشيخ النبهاني كان مُكثرَ السفر، وتنقّل كثيرًا بين الأمصار، فكان مَن يريد أن يكتب كتابًا أن يسافر إلى نفس البلدان ويجمع منها الأخبار، خاصةً ونحن نتحدث

عن روايات شفهية التي إن لم تُستَنْطَقَ من صدور الرجال؛ فإنها تذهب بذهابهم في أغلب الأحيان؛ ما لم يورّثوا بعضها لِمَن حولَهم.

والذي حصل في هذا الكتاب أنّ المعلومات باتت محصورةً في رواية شفهية من شخص من البحرين وبين ما هو مكتوب؛ وأظن لو سافر الخاطر إلى الحجاز حيث كان مُستقرّ الشيخ النبهاني لَتَضَاعَفَ حجم الكتاب. ولكنه لم يفعل لا لشخصية النبهاني ولا للشخصية التي بعدها وهي شخصية عبد المحسن الصحّاف.

وأظن أنّ مرجع ذلك إلى أنّ القاعدة التي وضعها الخاطر في مقدمة السيرة، وهي التركيز على ارتباط هذه الشخصيات بالبحرين، وبذلك طُرحت بقية الأمور جانبًا أو باتت أمورًا هامشيةً ذات أهمية أقلّ.

وأفضلية مبارك الخاطر على الدكتور محمد رفيق كانت أنّ الشيخ مبارك الخاطر قد بدأ مشروعه وكبار السن موجودون وهم الذين لم يدركهم أو لم يُدرك جُلَّهُم الدكتور محمد رفيق.

أمّا الضرب الثاني: فهو عدم التوسّع في البحث للوقوف على مراجع ممكن تُثري بحث الخاطر؛ فالنبهاني مذكور في مراجع متنوعة، وقد يُستخلَص من ترجمته أو ذكر أسانيده أو شيوخه وتلامذته أمورٌ، منها أسماء الكتب التي قرأها أو قُرأت عليه وهذا يوضّح مَعلَمًا من معالم توجهاته، ويُعرَفُ منها أيضًا مَن هم مشايخه ومَن هم تلامذته، وترى في بعض تراجمه معلومات شخصية من خلال شهود عيان وهم تلامذته.

وهذه المراجع جُمعت أخيرًا في كتاب (**تشنيفُ الأَسماع بشيوخ الإجازة والسماع**)؛ ولكنها أُضيفت -فيما أظن- في الطبعة الثانية في ختام ترجمة النبهاني، وهي طبعةٌ حديثة طبعت قبل تسع سنوات تقريبًا، وهي تختلف عن الطبعة الأولى التي وقف عليها الخاطر والتي لم تكن بها هذه الإضافات والزيادات، ولكن أظن كان بالإمكان الوصول إلى هذه المراجع بسؤال أهل الاختصاص والمعرفة، خاصةً من طلبة العلم في تلك المنطقة؛ خاصةً وأنّ بعض هذه المراجع قد طُبعت قبل أن ينشر الخاطر كتابه.

وأمّا المراجع المذكورة فهي:

- الفاداني: في (**الكواكب الدراري بإجازة محمود سعيد ممدوح القاهري**) و (**قُرّة العين في أسانيد أعلام الحَرَمَيْن**).
- الشيخ عبد الله بن محمد غازي: في (**نثر الدرر بتذييل نظم الدرر**).
- السيد علي العطّاس: في (**تاج الأعراس**)، ونصُّ كلامه كان: «**ومنهم الشيخ القدير الفلكي الشهير والجغرافي النحرير خليفة بن أحمد** (الصواب: حمد) **بن نبهان البحريني ثم المكي أحد علماء المالكية المدرسين بالمسجد الحرام رضيَ الله عنه، لا أعلم له صلةً بصاحب المناقب رضوان الله عليه؛ إلا أنه كان كثيرَ البحث عن سيرة السادة العلويين بحضرموت مُعجَبًا بطريقتهم لاصقًا بأشياخنا المكيين، وهو أحد أشياخي الذين تربّعت على موائدهم بالمسجد الحرام، قرأت عليه رسالته المسماة الوسيلة المَرعيّة في علم الميقات بالربع المجيب، وبالحساب الستيني، ولسعة اطلاعه في علم الفلك لم أَرَهُ يُمسك كتابًا بيده حال الدرس بل كان يستعين بعصاته**

على تمثيل الدوائر ومناطق البروج وخطوط أطوال البلدان وعرضها على الفراش الذي يكون جالسًا عليه، وقد أمرني في بعض الأيام مع جملة من الطلبة أن نبيت في جبل أبي قيس ليلةً فأتانا بعد العشاء وجعل يُعرّفنا بذوات النجوم في السماء وأسمائها ومنازلها، فتخيل لنا من حُسن وضوح إلقائه علينا أنّ أديم السماء هي الشوارع التي لعب فيها في أيام صباه، وإنّ النجوم هي ألعابه التي لا تُنكر صوته ولا تشمئزّ من لونه على أنّ صاحب الترجمة كان عابدًا متقشّفًا ميّالًا بطبعه إلى هيئة الدراويش في مَلبسه وحركاته العادية وبما أنه كان الوحيد في ذلك الوقت في فنّ الفلك والجغرافيا عينته امارة مكّة المفتش العام على مجاري الماء من عين زَبيدة التي يشربون منها أهل مكّة وملحقاتها، فكان إذا حدث اختلالٌ في شيء من الاقسام ينزل بنفسه في العتم -أي مجرى الماء- ويمشي فيه مسافة طويلة في عمق العتم وظلمته لكونه مسقوفًا حتى يدرك أثر ذلك الاختلال فيأمر بإصلاحه، وكان أكثر الناس تعجيبًا من أعماله المخصصين لهذا الشأن، وربما عدو ذلك من الولاية لا من صناعة العلم، قلت: وقد رأيت يومًا في حارة القشاشية بمكّة أناسًا مجتمعين فجئت إليهم وسألت بعضَهم عن الحال والشأن، فقال إنهم ينتظرون الشيخ خليفة يطلع عليهم الأن من هذه الخرزة -أي الفتحة- التي يستقي أهل تلك الحارة منها؛ لأنه جاء في العتم من مكان بعيد، فطلع حينئذ وبيده قبضة من الحيات أشكال وألوان وبعضها يلتوى على ذراعه وبعضها يمتد إلى الناس فابتعد الناس عنه خوفًا من الحيات فجعل هو يخرجها بيده الأخرى ويضعها على الأرض مع

بعضا وهو يقول: الحمد لله الذي سَلَّطَنَا عليها ولم يُسَلّطها علينا، فَهَمَّ بعض الحاضرين أن يرميها بالأحجار فانتهرَهُ الشيخ ثم خَطَّ عليها دائرةً في الأرض بعصاه وتلا عليها شيئًا من الأسماء فجعلت تتداخل في بعضها حتى صارت مثل الكرة ثم تفككت من بعضها وقد ماتت كلها في الحال، وقد أجازني شيخنا صاحب الترجمة إجازةً عامةً بعد أن أخبرني بأشياخه ولكن ذاكرتي الجامدة قد خانتني في ذلك»[٢٦].

- حسن بن محمد المشاط: في (**الثبت الكبير في مشيخة وأسانيد وإجازات**) وهذا نص كلامه: «**الشيخ الثاني والثلاثون: خليفة بن حمد النبهاني المالكي المكي: قرأت على شيخي الشيخ خليفة بن حمد النبهاني (رسالة القيرواني) و (رسالة في الربع المجيب). وأروي عن شيخنا، وهو عن شيخه الشيخ عبد القادر ابن الشيخ علي ابن الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ عباس النشاط المناقي، تغمّده الله برحمته**»[٢٧].

- عمر عبد الجبار: في (**دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام**) والذي طُبِعَ لاحقًا بنوع من التوسّع بعنوان (**سِيَر وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة**).

- زكريا بن عبد الله بيلا: في (**الجواهر الحِسان في تراجم الفضلاء والأعيان**) وهو نقلٌ عن ترجمته في كتاب (**التحفة النبهانية**) ثم زاد عليها

---

[٢٦] الحبيب علي بن حسن العطاس، تاج الأعراس على مناقب الحبيب القطب صالح بن عبد الله العطاس، منارة قدس، الطبعة الأولى: ١٩٧٩، (ص٦٤٤-٦٤٥-٦٤٥).

[٢٧] الثبت الكبير في مَشْيَخة وأسانيد وإجازات الشيخ حسن المشاط المكي، تحقيق: محمد بن عبد الكريم بن عبيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥، (ص١٩٩).

بناءً على رواية محمد ياسين الفداني وفيها إضافاتٌ مهمة تتلخّص في ذكر ابنٍ ثالث له وهو موسى، وبعض المعلومات عن مؤلفاته، وأين دُفِنَ وكيف كانت جنازته[٢٨].

- محمد مختار الدين الفلمبانيُّ: في (**بلوغ الأماني**)[٢٩].
- محمد بن علوي المالكي: في (**فهرست الشيوخ والأسانيد**).
- عبد الله بن عبد الرحمن المُعَلِّمِي: في (**أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري**)؛ وهي ترجمةٌ لا جديد فيها سوى استنساخ كلام عمر عبد الجبار.[٣٠]
- عاتق بن غيث البلاديُّ: في (**تراجم مؤرّخي مكّة و جغرافيها على مَرّ العصور**).

وهذا الانحصار في مراجع محدودة هو ما جعل الخاطرَ يذكرُ أنّ الشيخ خليفة النبهاني قد توفي ١٣٦٢هـ دون التنبّه إلى وجود خلاف في تحديد سنة الوفاة على ثلاثة أقوال، وهي:

١. عمر عبد الجبار في كتابه (**سِيَر وتراجم**) ذهب إلى أنّ وفاته عام (**١٣٦٢هـ**).

---

[٢٨] زكريا بن عبد الله بيلا، الجواهر الحِسان في تراجم الفضلاء والأعيان، تحقيق عبد الوهاب بن إبراهيم ومحمد إبراهيم، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٦، (المجلد الأول، ص١٨٣ إلى ص١٨٧).

[٢٩] بلوغ الأماني في التعريف بشيوخ وأسانيد مسند العصر الشيخ محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي، جمع وترتيب: محمد مختار الدين الفلمباني، دار قتيبة، الطبعة الأولى: ١٩٨٨، (ص٥١-٥٢-٥٣).

[٣٠] عبد الله بن عبد الرحمن المُعَلِّمِي، أعلام المكيين من القرن التاسع الى القرن الرابع عشر الهجري، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠، (٢/ ٩٥٩).

٢. وذهب عبد الله بن محمد غازي في (**نثر الدرر بتذييل نظم الدرر**) إلى أن وفاته كانت (**١٣٥٣**هـ).

٣. وذهب الفاداني في عدّة مواضع وهي (**فيض المبدي بإجازة الشيخ محمد عوض منقش الزبيدي**) و(**قرة العين في أسانيد شيوخي من أعلام الحرمين**) و(**فيض الرحمن في أسانيد وترجمة شيخنا خليفة بن حمد النبهاني**) و(**بغية المريد من علوم الأسانيد**)، إلى أنّ وفاته كانت عام (**١٣٥٥**هـ).

ولكن الدكتور محمد رفيق رجّح القول الثالث باعتبار أنّ الفاداني من أقرب التلاميذ له.

وأمّا اختيار الخاطر لتاريخ (**١٣٦٢**هـ) لأنه هو المرجع الوحيد الذي اطلع عليه وعيّن سنة الوفاة وهو كتاب عمر عبد الجبار!

وكذلك الوقوف على مراجع قد استَشْهَدَ الخاطر بها، ولكن طَرَأَ عليها نوعٌ من التغيّر في الطبعات اللاحقة، فمثلاً يحكي الدكتور محمد رفيق أنه وقف على أربعة أبيات في كتاب (التحفة النبهانية) في طبعتهِ الأولى، نسبها المؤلف إلى والده الشيخ خليفة النبهاني، ولكن هذه الأبيات لم تكن موجودةً في الطبعات اللاحقة. وأظنّ لو وقف الخاطر على الطبعة الأولى؛ لَمَا قال مقولته السالفة بأنه لم يعثر على أبيات للشيخ خليفة النبهاني. **فمن المهم المقارنة بين الطبعات في مواضيع معينة أو محددة حتى لا تفرط معلومة من هنا أو هناك.**

ما هو معتقد الشيخ خليفة النبهاني؟

هناك قضية لم تُطرَق لدى كلا الرجلين في ترجمتهم وبحثهم عن الشيخ، فنحن نعرف مذهبه الفقهي، ونعرف الفنون التي برع بها، ولكن ماذا كان مذهبه في المعتقد؟ أي كان الشيخ على أي مدرسةٍ في العقيدة من المدارس التي تزخَرُ بها هذه الأُمّة وتُنسب إليها؟ أنا أقول ليست العقيدة السلفية؛ لأنّ ابنه كان مُبغضًا لها وهذا واضحٌ في كتابه (**التحفة النبهانية**) ولو كان والده سلفيًا لَمَا استقام مدحه مع ذمّه لها، وبنحو ذلك كتاب (**تشنيف الأسماع**) للشافعي؛ والذي كان ناقمًا على السلفية وتجد هذا صريحًا أثناء ترجمته للشيخ عبد الله بن بليهد (ت: ١٣٥٩هـ).

وقد يُكشف شيءٌ من طرف توجّه الشيخ العَقَدي من كلام الخاطر عندما قال إنّ أغلب قصائده في المدائح النبوية، لعل كان مُتصوّفًا، لأنّ هذه القصائد كانت تستخدم في الموالد عادةً، وهنا نعود إلى النقطة التي ذكرناها فيما سبق، وهي البحث عن البيئة العلمية التي تَزْخَرُ بها مكّة آنذاك، لنَحْصُرَ الخيارات في توجهات محددة.

كما يجب القول إنّ العقيدة السلفية طارئة على البحرين، بمعنى أنّ شيوخها في القرن الرابع عشر الهجري لم يَشع بينهم هذا المعتقد، بل حتى السلفي الذي استقرَّ في البحرين كان وافدًا من نجد بعد خراب الدرعية على يد جيش محمد علي باشا، وهو الشيخ عبد العزيز بن مُعَمّر أحد أئمة الدعوة (ت: ١٢٤٤هـ)، ورغم علمية هذا الشيخ التي كان لها حضورها؛ إذ يُقال أنّ حاكم البحرين آنذاك عبد الله بن أحمد آل خليفة عندما طلب من المشايخ في البحرين أن يردّوا على كتاب القسيس الهولندي (هوقودي قروت) والذي تُرجم إلى العربية تحت اسم (**مفتاح المخازن ومصباح الدفائن**) لم يكتب الردّ سوى الشيخ عبد العزيز بن معمر وقد طُبع تحت

عنوان (**منحة القريب المجيب في الرد على عُبّاد الصليب**)[٣١]، إلا أنّ الشيخ ابن مُعَمّر لم يؤسس لوجود مدرسة سلفية لها حضورٌ دائم في البحرين؛ رغم أنه عاش في حي الحنابلة بالمحرّق و يقال بأن سُكّان هذا الحي كلهم سنيُّون حنابلة!**[٣٢]**.

ويبقى الشيخ قاسم بن مهزع قاضي البحرين الأبرز حالة محيرة، فقد وَصفهُ الخاطر في كتابه الآخر وقال: «**الشيخ قاسم سلفي النزعة**»[٣٣]، رغم أنّ رسائل قاسم بن مهزع إلى عبد الله بن أبي بكر الملا الإحسائي نزعتُها الصوفية لا تخفى[٣٤]، ولكن بعدها بعقدين تقريبًا طرأت بعض الأمور على الشيخ قاسم، مثل إقراره على فتوى لا تجيز الذكر بلفظ الجلالة من غير نفي أو إثبات، وعدم جواز الذكر بغير الوارد في الكتاب والسُنّة من الأدعية والأذكار[٣٥]، وإذا كان التوجّه السلفي يُصَوَّرُ على أنه قد يخالف المذاهب الأربعة في بعض الفتاوى، فكذلك فعل قاسم بن مهزع في أحد فتواه في إنزال حكم المحاربين على من سعى لإفساد محارم العباد[٣٦]، وثم أفتى الملا عبد الرحمن بقول ابن تيمية في أنّ الطلاق الثلاث تقع في واحدة! [٣٧]

---

[٣١] ناصر الفهد، مجموعة: نجديات، قصة: منحة القريب، (ص١٨-٢٠).

[٣٢] عبد العزيز آل مُعَمّر، منحة القريب المجيب في الرد على عُبّاد الصليب، تحقيق: محمد السكاكر، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٩٩٩م، (ص٥٨).

[٣٣] القاضي الرئيس قاسم بن مهزع، (ص١٣٠).

[٣٤] بشار الحادي، قراءة في آرائه الفقهية – دراسة مقارنة بالمذاهب الأربعة، ضمن كتاب (أبحاث ندوة الشيخ القاضي الرئيس قاسم بن مهزع)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٩-١٠ أبريل ٢٠٠٧، (ص٢٤٢ وص٢٤٨).

[٣٥] المصدر السابق، (ص٣١١).

[٣٦] المصدر السابق، (ص٢٦٨).

[٣٧] المصدر السابق، (ص٣١٥).

ثم جاء في وثيقة بخط الملا عبد الرزاق بن قاسم يقول فيها: « **«قبل أمس كان درس صاحبك الشيخ قاسم وقرينه علي النجدي في الطعن في كرامات الأولياء، وفي الصوفية، وأهل الطريقة، والشطحات، وفي عبّادين القبور أي: الذين يزورون القبور، والذي يحلل زيارة القبور كالشافعي والحنفي رضي الله عنهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[٣٨]، ولعل كاتب الوثيقة فسّر الأمور على هواه، فيقول إنّ الشيخان طعنا في عبّاد القبور، فهم يتكلمون عن ممارسات تحصل عند القبر، لذلك سَمّاهم أصحابها بعُبّاد القبور، وليس مشكلتهم مع مجرد الزيارة التي أفتى بها الشافعي والحنفي.

وهذا النصّ إن ثبتت صحته فهذا يدل على افتراق الشيخ قاسم عن معتقد التصوَّف إن قلنا إنه كان يقول به وينتحل بعض ألفاظه وصفاته.

***

وقد انتقد الدكتور محمد رفيق طريقة تناول الخاطر في بحثه هذا لسيرة الشيخ والذي كان فيه الخاطر منتقدًا لِمَن قبلَه فيه! ولا أعلم ما هي الإضافات التي زادها الدكتور محمد رفيق والذي ربما طَرحها في تحقيقاته كتحقيقه لرسالة (**منازل القمر**) للشيخ خليفة النبهاني، أو حتى في كتيبه (**المسلسلات النبهانية**)، ولم أستطع الاطّلاع عليهما.

وأثناء بحثي في الشبكة العنكبوتية وقفت على بعض المعلومات القليلة عن الشيخ خليفة النبهاني.

---

[٣٨] المصدر السابق، (ص٣٢٠).

يقول الشيخ صالح العجيري في أحد اللقاءات معه: «**وقد درست علم الربع المجيب عام ١٩٣٥م على يد الأستاذ عبدالرحمن قاسم الحجي رحمه الله الأخ الأكبر للأستاذ يوسُف الحجي وزير الأوقاف سابقًا الذي تلقى علم الربع المجيب على يد بيت آل النبهان بالحجاز. وتَرجع أصول بيت آل النبهان إلى البحرين ووالدهم حمد بن خليفة وهم جماعةٌ من العلماء الفقهاء والمهتمين بمصطلح الحديث والفقه والتاريخ بالإضافة إلى علم الربع المجيب الذي انتشر في الجزيرة العربية عن طريقهم. وعلم الربع المجيب من العلوم الإسلامية القديمة لكنه اضمحلَّ مع اضمحلال دولة الإسلام ولكن مع قدوم الدولة العثمانية أُحييَ هذا العلم وأُعيدَ الرسم والتأليف فيه واستُخدم لتحديد مواقيت الصلاة وتحديد اتجاه القبلة، ويعتقد أنّ علم الربع المجيب قد وصل الجزيرة العربية عن طريق العثمانيين ونَقَلَهُ آل النبهان إلى الحجاز ثم الكويت عن طريق عبدالرحمن الحجي حيث تبعته وأكملت عنده دراسة هذا العلم ولم يدعني حبي لعلم الفلك ساكنًا في مكاني بل بذلت قُصارَى جُهدي لتلقي هذا العلم في آخر الدنيا [...] وكما قلت سابقاً فقد واجهتني في دراسة علم الفلك معاناةٌ شديدةٌ فقد درست علم الربع المجيب في الفلك وكان أستاذي في ذلك هو المرحوم (عبدالرحمن الحجي) وقد أخبرني أنه دَرَسَهُ في مكّة المكرمة على يد الشيخ (خليفة حمد النبهاني) وآل النبهاني مشايخ يهتمون بعلم الربع المجيب والتاريخ ومصطلح الحديث ولهم مؤلَّفاتٌ في ذلك وقد عَلِمَ والدي وأنا مازلت صغيرًا أنّ أحدهم وهو الشيخ أحمد خليفة النبهاني قد حضر إلى الكويت وهو في ضيافة آل الإبراهيم ومنزلهم وديوانيتهم قرب (قصر السيف) ومنزلنا قرب فندق (ميريديان) فحرصت على أن ألقاه وكنت أذهب إليه**

مشياً على القدمين في حَرّ الصيف لكنه لم يأبه بي بادئ الأمر لصغر سني وشكلي لكنني ثابرت وسَعَيْتُ إلى تقديم أسئلتي إليه في فرصةٍ مدتها بضع دقائق عندما عرفت أنه يستيقظ من نَوْمَة القيلولة ثم يذهب إلى الحمام ليتوضأ لصلاة العصر وبعد ذلك يشرب الشاي الذي يُعَدُّ له عندئذٍ كانت فرصتي هي بين خروجه من الحمام وجلوسه للشاي وهكذا كنت في كل يوم أقطع المسافة الطويلة في حَرّ القَيْظ لكنه لمّا وجد إدراكي في علم الفلك ساعدني كثيراً وأراني مجاميع النجوم في الليل وعند سفره أعطاني عنوان شقيقه الشيخ محمد خليفة النبهاني الوكيل الوحيد للعقارات والبساتين للحرم ومَقَرُّه في البصرة فراسلته واستفدت منه وعندما حضر إلى الكويت عرفت منه الكثير»[٣٩].

ولمّا تتبّعت كل التراجم وجدت أنها كلها لم تذكر أنّ للشيخ شرحٌ على المنظومة البيقونية، ولكن ذُكر ذلك في ترجمة حسين بن علوي الحبشي (تـ: ١٩٦٠م)، الذي صَنَّفَ في البيقونية وقال في مقدمة الشرح: «**فَشَرَعْتُ في شرحٍ لطيفٍ، وتعليقٍ شريفٍ يحلُّ مبانِيها، ويُبرزُ معانِيها، أخذتهُ من شُرَّاح المنظومة كالعلامة الزرقاني، والشيخ خليفة النبهاني، وشيخنا الهمام حسن محمد المشَّاط، ومن غيرها، سميته النزهة البهية في شرح المنظومة البيقونية**»[٤٠].

ويبدو أنّ اسم هذا الشرح هو (**التحفة النبهانية بشرح المنظومة البيقونية**)[٤١].

---

[٣٩] زكريا عبد الجواد، رحلة في عالم أشهر فلكي في الخليج العربي، مجلة العربي، العدد ٥٣١، فبراير ٢٠٠٢، (ص٩٠-٩١).

[٤٠] مجلة الدراسات اللغوية، المجلد الحادي والعشرون، العدد الرابع، أغسطس ٢٠١٩م، إضاءة البحرين في ما تُكسر فيه وإما تنفتح جواز الوجهين، تحقيق: حسين علوي الحبشي، (ص٢٥٩).

[٤١] انظر: أحمد معبد عبد الكريم، الحافظ العراقي وأثره في السُنّة، أضواء السلف، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤، (١/ ٢٧).

والصواب أن هذا الشرح لابنه محمد بن خليفة النبهاني كما قال عمر عبد الجبار[٤٢] والزِّرِكْلي[٤٣]، وفي مقدمة الكتاب ما يُثبت هذه النسبة، في قول المؤلف: «**فيقول العبد الفقير الراجي من ربه اللطف والغفران محمد ابن العلامة الشيخ خليفة بن حمد بن موسى النبهاني الطائي نسبًا، المكي مولدًا ومنشئًا، المالكي مذهبًا، والأشعري عقيدة: إنه قد طلب مني بعض الإخوان وضع شرح لطيف على المنظومة البيقونية**»[٤٤]، والله أعلم.

***

أما الشخصية الثالثة فهي الشاعر (عبد المحسن الصحّاف أو المسلماني)، فهنالك بوارق أربع لاحت للمؤلف حتى يَشرَع في الكتابة عنها:

- وهي سماعه في حي البن خاطر أنّ أسرة الصحّاف القريبة من منزلهم لديها شاعر لدى الشريف حسين.
- وثانيها الوقوف على ترجمة للزِرِكْلي لعبد المحسن الصحّاف.
- وثالثها الشروع في عملٍ مَيداني في حي البن خاطر مسكن الشاعر الأصلي والوقوف على قصيدة في حَوْزة جاسم الدغاث الخليفة للشاعر الصحّاف، واعترف الخاطر هنا أنه لم يعثر على شيء ذو بال بسؤال كبار السنّ، والسبب فيما أظن أنّ الشخص لا يضع بصمته في المكان إلا إذا كَبُرَ

[٤٢] سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، (ص٢٧٥).

[٤٣] خير الدين الزركلي، الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر: ٢٠٠٢، (٦/ ١١٧).

[٤٤] محمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية بشرح المنظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، (ص٥).

فيه، أمّا الشاعر عبد المحسن الصحّاف فقد خرجَ من البحرين وهو شاب لم تكن له بصمةٌ في المجتمع، فما هي نوع الذكريات المُرْتَجَى أن تُقالَ عنه؟ ولو كان قد بدأ بتعلّم الشعر من البحرين، لكان مَدخلًا مُهمًا للبحث عنه، وهو من الذين أثّروا فيه، ومن الشعراء الذين كان يحب السماع لهم، وإذا كانت له محاولاتٌ شعرية فماذا كانت مواضيعها، لكن إذا كان شابًا كبقية الشباب، يلعب ويكدح؛ فأين ما يُميّزه هنا حتى يكون له حضورٌ في ذاكرة الناس؟

- أمّا البارقة الأبرز وهي الوقوف على مراجع لقصائد وأشعار الصحّاف وقف عليها في كتاب عبد الله الحامد (**الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين**)، وهذا ما جعل الخاطر يسافر للوقوف على هذه المراجع في أرشيف جامعة الملك سعود.

وهنا فائدةٌ بَديهية: وهي كون وجود المراجع في موضع مُعيّن يستلزم فيه السفر وشَدَّ الرحال فلا بُدّ من تحمّل عَنَاء السفر وإكمال المشروع البحثي؛ فلذلك البحث التاريخي يحتاج ميزانيةً للسفر والتنقّل والاستقصاء للخروج بأعلى كميّة من الأخبار والمعلومات، وهذا للأسف أبرزُ مَن يقوم به هم المستشرقون الجدد الذين كتبوا أبحاثًا في الجماعات الإسلامية، بل انظر ماذا يقول ستيفان لاكروا عن كتابة (زمن الصحوة): «**يستند هذا الكتاب في الأساس إلى عملٍ ميداني قُمتُ به من شهر يونيو ٢٠٠٣ حتى شهر مايو ٢٠٠٧، في المملكة العربية السعودية في الأكثر،**

وكذلك في الكويت والبحرين والإمارات العربية المتحدة ومصر والأردن وبريطانيا العظمى، وأجريت في أثناء زيارتي إلى تلك الدول ٥٠ مقابلةً مسهَبةً»[٤٥].

وقد يُفهَمُ أنّ المضي في البحث حول أربع سنوات هذا من مستلزمات رسالة الدكتوراة التي كان يعمل عليها ستيفان لاكروا، ولكن صديقه توماس هيهغامر عندما أراد أن يترجم لشخص وهو الشيخ عبد الله عزّام تقبّله الله، قد عمل في بحثه لمدة عَقدٍ كامل (١٠ سنوات)[٤٦]، فمحاولة الإتقان هي التي أَخَّرَت هؤلاء للخروج بأبحاثٍ تستحق الوقوف عندها.

ولكن للأمانة هنالك فارقٌ بين الباحثين العرب وهؤلاء الباحثين الأجانب، فهم مدعومون من قِبَل مؤسسات، بل انظر ماذا يقول توماس هيغامر نفسه: «**في نهاية عام ٢٠٠٧م استطعت أن أفرّغ نفسي بشكل كامل لكتابة سيرة عزام بفضل زمالة ما بعد الدكتوراة ومنحة سفر من جامعة برنستون؛ حيث تمتعت بدعمٍ كريمٍ من برنارد هيكل. سُمح لي حينها بإكمال بحثي في مركز بلفور في كلية كيندي في جامعة هارفارد بفضل حفاوة مونيكا دوفي... إلخ**»[٤٧]، وهو يذكر مراكز الأبحاث التي دعمته وذللت أمامه الصِعَاب المادية وغيرها.

ولكن انظر إلى مبارك خاطر في الطرف المقابل رغم اختلاف مواضيع البحث، يقول الخاطر في مقدمة كتابة الآخر عن القاضي قاسم بن مهزع: «**لا بُدّ من التفرغ**

---

[٤٥] ستيفان لاكروا، زمن الصحوة: الحركات الإسلامية المعاصرة في السعودية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠١٢، (ص٩).

[٤٦] بدأ من ٢٠٠٧ وانتهى في ٢٠١٧، انظر: توماس هيغهامر، القافلة: عبد الله عزّام وصعود الجهاد العالمي، ترجمة: عبيدة عامر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى: ٢٠٢١، (ص٢٢-٢٣).

[٤٧] القافلة: عبد الله عزّام وصعود الجهاد العالمي، (ص٢٢).

للبحث عن هذا التراث واستقصائه وتسجيله. ثم غربلته وتمحيصه، في شيءٍ من الصبر والأناة واللذَيْن قد يتطلبان في جزءٍ منه فقط الوقت والجهد والمال، فأين الحصول على هذه الحوافز الثلاثة لواحدٍ مثلي؟ غير أنه وفي أثناء تنفيذ مخطط هذه الدراسة، برزت القاهرة جهةً أستطيعُ أن أحصل فيها عن شيء من المراجع في هذا الخصوص. لكن أينها مُؤنَةُ الطريق وأنا لا أستطيع ذلك بسبب ما يُعانيه مثلي من قلة الرعاية، وليس هنالك ما يوحي بوجود جهاتٍ مُعينةٍ يجتمع لديها المال والرغبة في إخراج شيءٍ من تراث بلادها المجيد، فتقوم بإخراجه إن لم تضع أمامه المعوّقات»[٤٨]، ولا زال الباحثون المستقلون يُعانون من هذا الأمر الى زماننا هذا، وأحياناً يكون الدعم مشروط فيساومك الداعم للكتابة في موضوع معين بشرط أن تصل الى نتيجة محددة سلفًا وإلا فلا!

***

وكان مَقصَدُ الخاطر هو الوقوف على المراجع المكتوبة؛ لا الروايات الشفهيّة؛ لذلك قصد (موضع المراجع) في الرياض لا (مسكن الشاعر) في الحجاز، وذرع الرياض حول ستة أشهر سقط فيها مريضًا.

ولحسن حظ الخاطر؛ أنّ زميله المؤرّخ مبارك العماري وقف على كُرّاس فيه أشعار وقصائد لعدد كبير من الشعراء الحجازيين، وكان من بينهم قصائد للصحّاف أُضيفَت إلى المجموعة التي عَثَرَ عليها الخاطر في أرشيف جامعة الملك سعود، وهنا تعلَمُ أهمية تعاون الباحثين مع بعضهم البعض؛ وأن تكون العلاقة

[٤٨] انظر: مبارك الخاطر، القاضي الرئيس قاسم بن مهزع، المطبعة الحكومية بوزارة الإعلام في البحرين، الطبعة الثانية: ١٩٨٦، (ص١١).

بينهم تعاونيةً تكامليّةً لا تنافسيّةً، خصوصًا إذا كانت أهدافهم في البحث العلمي مختلفة بحيث لا يكون هناك نوعٌ من التنافس في الموضوع الواحد.

وطُلبت نُسخةٌ مُصوّرةٌ من هذا الكُرّاس؛ وكان الطلب قد تَمّ عبر مكتب ولي عهد البحرين -الملك الحالي-؛ والذي سَهَّلَ المهمة، فأصبح هذا الكُرّاس في حَوْزَة الباحثين، فمثل ما يحتاج البحث العلمي إلى ميزانية للسفر والتنقّل يحتاج أيضًا إلى دعمٍ من جهاتٍ حكوميةٍ لِتُسَهِّلَ عليه مهمة البحث.

ولكن لم يكن المقصد من استقصاء شعر الصحّاف هو نشره كديوان عبر هذا الكتاب، بل الكتاب تناول نماذج معينة من شعر الصحّاف، ولا زال شعره إلى هذه اللحظة لم ينشر في ديوان!

ولكن في هذه القراءة راح نتناول أيضًا عرض الدكتور محمد رفيق في محاضرةٍ له بعنوان (***شاعر البلاط الهاشمي عبد المحسن الصحّاف المحرقي***)، ولعلّ أول الملاحظات سيكون في تحديد نسب الصحّاف؛ فالخاطر جرى على ما هو مكتوبٌ وشائع؛ فاذا انتسب أحدهم إلى عائلة وبات يصدر اسمه قرينةً باسمها؛ فهو منها وهذا من البداهة، ولكن الغريب أن الشاعر عبد المحسن ليس من الصحّاف؛ بل خواله من الصحّاف، وهذا ما وقف عليه الدكتور محمد رفيق في رثاء أحمد النبهاني له في صحيفة أُمّ القرى، فيقول أحمد النبهاني عنه: «**الشهير بالصحّاف نسبةً إلى جده لأم الشيخ عبد اللطيف**»[٤٩]، رغم أنّ النبهاني لم يحدد نَسَب الشاعر الصحيح؛

[٤٩] أحمد النبهاني، في عالم الأدب: عن حياة الشاعر عبد المحسن الصحاف، صحيفة أم القرى، يوم الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٣٥٠هـ ١ أبريل ١٩٣٢، (ص٤).

إلا أنّ الدكتور محمد رفيق يقول انه وقف على وثيقة يذكر فيها نسبة وهو (المسلماني).

والدكتور محمد رفيق يقول إنّه عند تحليله الشخصي محاولًا الإجابة على سؤال لماذا الشاعر عبد المحسن لم يستخدم اسم أُسرته الحقيقية في الدلالة على نفسه في الحجاز؟ لأنه يوجد مسلمين في الحجاز من أصولٍ قبطية وأصولهم مصرية فحتى لا يُنسَب إليهم أو يُحدِث نوعًا من اللَبس فلم يستخدم لقب أُسرته الحقيقي.

ولا أظنّ أنّ هذا هو السبب الحقيقي، لأنّ اختلاف المَنبت قد تُعطي دلالةً مباشرةً على اختلاف الأَصْلَيْن، وأرجح أنه نشأ وعُرف وأصطلح على التلقب بالصحاف حتى بات لا يستخدم لقلبه الأصلي لما أُشتهر وعرف وشاع بين الناس معرفته بهذا اللقب، والدليل أن حتى في قصادئه الى البحرين لم تحمل اسم المسلماني ولم تطرق أذان مبارك الخاطر هذه المعلومة ممن عاصروا هذه الشخصية.

وأظنّ لو وقف الخاطر على رثاء أحمد النبهاني لّما استرسل وقال في سياق كلامه عن آل الصحّاف وقال: «**لم يخرج فيهم شاعرٌ معروفٌ كالشاعر الذي نترجم له الآن**»؛ لأنه ليس منهم، ولعلّ تأكيد أحمد النبهاني على تصويب قضية النَّسَب؛ هو لوجود تحذيرٍ شرعي وأمرٍ إلهي: **{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ}**.

وتفويت الخاطر لمقالة أحمد النبهاني جعلته يخطأ أيضًا في تحديد سنة الوفاة التي حددها بـ ١٣٥٢ هـ، بينما في مقالة أحمد النبهاني يقول: «**ماتَ غفرَ الله له وعفَا عنه في أواخر رجب من عامنا هذا عام ١٣٥٠هـ**».

ومن الأمور الغريبة حدوث ذلك؛ لأنّ الخاطر قد وقفَ على ترجمة الصحّاف في كتاب (**الأَعلام**) لخير الدين الزِّرِكْلي، وفيه سنة وفاته ١٣٥٠هـ.

وقد وضع الزِّرِكْليُّ هامشًا يَذكرُ فيها اعتماده على رثاء أحمد النبهاني من صحيفة أُمّ القُرى بتاريخ ٢٤ ذو القعدة ١٣٥٠هـ، فإذاً من الطبيعي أن تكون هذه هي سنة الوفاة؛ إذ لا يُعقَل أن يرثيَ شخصاً وهو حي!

ولم يقف الخاطر على مَرثية أحمد النبهاني في أُمّ القُرى، رغم أنه اعتمدَ على مقالات من صحيفة أُمّ القُرى في كتابه، ورغم أنّ الزِّرِكْليَّ حدد العدد بالضبط من خلال التاريخ فيكون البحث عنه أسهل، وأغلب الظنّ أنّ ذلك حصل ظناً من الخاطر أنّ نَصَّ الزِّرِكْلي هو نفسه نصّ النبهاني ولا جديد فيه! وانظر ماذا فاته من معلومات.

أيضاً استطاع محمد رفيق أن يقف على مقالاتٍ لعبد المحسن الصحّاف في أكثر من مجلة، واستطاعَ كذلك أن يقف على مؤلَّفٍ له، وهذا غريب أن يجد محمد رفيق هذه المقالات ولا يجدها الخاطر وكلاهما قد بحثا في ذات الأرشيف!

***

يُقال إنّ والد عبد المحسن وهو محمد كان طالبَ علمٍ وقد قرر الذهاب إلى مكّة لطلب العلم والاستزادة منه، وبذلك بدأت هجرة عبد المحسن إلى مكّة واستقراره فيها، بل موته فيها، وسبب الهجرة سببٌ طبيعي أو لا غرابة فيه؛ بَيْدَ أنّ عبد المحسن في أشعاره يُدندن على قضيةٍ معينة وهي ترك البلد التي لا تُقدّرك،

ولا أعلم هل يربط هذه الأبيات بسبب هجرتهم وأنه يرى أن هذه الأبيات تُمثّل حالَه أَم مجردَ طرحٍ عامٍّ، فيقول مثلًا:

إلى كـــم مقـــامي في بـــلادِ معـــاشر يـــرومُ إســـاءاتي وهجـــو شـــبابِها
فَتَعْســـاً لـــدار لم تُصِـــني وأرضـــها تســـاوى بهـــا أبناؤهـــا وكلابُهـــا

وقوله أيضًا:

قَـــوِّض خيامـــك عـــن أرضٍ تُعـــافُ بهـــا وانـــزل بـــأرض إليهـــا المجـــد يَنْتَسِـــبُ
وارحـــل إذا كانـــت الأوطـــان منتقصـــةْ فـــالنقص في القـــدر فيـــه يـــرخص الـــذهبُ
واضـــعطن إذا لم تجـــد للمســـك مشـــتريًا فالصـــندل الرطـــب في أوطانـــه حطـــبُ

والشاعر عبد المحسن يُعرَفُ بشاعر البلاط؛ ووصف البلاط المضاف عادةً لا يكون مما يُمدَح به الشاعر، كأن تقول في وصف أحد المشايخ بأنه شيخُ بَلَاط، وعادةً هذا الوصف يَقترنُ بمَن يدور في فلك صاحب البلاط، فالشاعر يَمدَحُ صاحب البلاط بما ليس فيه، وشيخ البلاط يُفتي بحسب هوى صاحب البلاط بما ليس في الشريعة.

وأظنّ أنّ ذلك حصل بسبب الارتزاق من خلال كتابة الشعر؛ وكأنّ الخاطر في صـ (٦٢) أومَأَ إلى ذلك، لذلك أنا أَعْجَبُ ممن يكتب الشعر مقابل المال؛ كيف يُصيغ عباراتٍ لا روحَ فيها ولم تخرج من صميم قلبه؛ لأجل حفنةٍ من المال! وأمّا الذي يقلب الحق باطلًا والباطل حقًا؛ فهذه دَركةٌ أشدُّ.

عاشَ عبد المحسن المسلماني في الحجاز في الوقت الذي بدت بوادر ما سُمّيَ بالثورة العربية الكُبرى تظهر على العلن، لذلك كان شِعره ضمن صفوف هذا

الحراك التي تموج به الحجاز، وله من القصائد الحماسية والثورية التي أثبتت وجودها ضمن جملةٍ من كبار الشعراء آنذاك في الحجاز، ومن ذلك قوله:

بحـــثَ العـــداة بظَلفِهِـــم عـــن حَـــتْفِهِمْ وتبـــاهتوا في حَوْمَـــة الهَيْجَـــاءِ

طَحَنَـــت رَحَـــى الحَـــرب الضرـــوس رؤوسَـــهُمُ طَحْـــنَ الحبـــوب بسَـــاحة الحُلفـــاءِ

***

وبالنسبة لي كان الملفت هو القيمة التاريخية الموجودة في شعره المرتبط بالبحرين. ويجب التأكيد على أنّ هذه المعلومات قد كانت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، فقد وُلِدَ الصحّاف سنة ١٨٧٤م وهاجر إلى مكّة -حسب كلام أحمد النبهاني- بعد سبع سنوات من ميلاده، أي أنه بقيَ في البحرين حتى السنة ١٨٨١م، أي أنّ المعلومات التاريخية كانت خلال هذه الفترة الزمنية؛ كما يحتمل أنّ بعضها مما عرفه لاحقًا من الوافدين البحرينيين إلى مكّة.

وله ثلاثة قصائد حول البحرين وهي (سلامٌ على البحرين) و(بلادي مجمَع البحرَيْن)، و(ميمية الصحّاف في البوعينين)، هذه الأخيرة لم يتطرق له مبارك الخاطر كثيرًا في كتابه، فلذلك سوف أُعلّق على بعض ما فيها ضمن مُلحق هذه المراجعة.

أما بقية قصائده التي أشار إليها الدكتور أبو بلال عبد الله الحامد بمراجعها[٥٠]؛ فلم يستعرضها كلها الدكتور مبارك الخاطر، أي لم يعرض القصيدة كاملة

[٥٠] انظر: عبد الله الحامد، الشعر في الجزيرة العربية نجد والحجاز والإحساء والقطيف خلال قرنين، الطبعة الأولى: ١٩٨١، (ص٣٩٥).

والبعض تجاهلها تمامًا مثل مدح الصحاف للملك عبد العزيز!، وأظن أن هذه عادة لديه إذا ما أخذنا بالاعتبار الرسائل التي عرضها للشيخ قاسم بن مهزع في كتابه الآخر. فهو ينتقي بعض النماذج في عرضه وربما لا يعرضها كلها حتى لا يصبح الكتاب أشبه بالديوان الشعري وهو ليس مخصصًا لذلك.

***

كان القصد من هذه المراجعة العامّة هي استعراض ما في الكتاب من موضوعات؛ وكنت أظن أني سوف أنتهي منها خلال جلسة واحدة ولكن طال الأمد وتحولت مع الوقت إلى قراءةٍ نقدية في منهج مبارك الخاطر في التأريخ، ولم يكن الهدف منها إظهار الذات مقابل المؤرّخ مبارك الخاطر، وتتبّع أخطاءه، لأنّ هذه الأخطاء هي وليدة تلك الظروف الزمانية والإمكانيات المادية، فمبارك الخاطر لم يكتب كتابه هذا مع وجود الكمبيوتر ولا الانترنت ومحرّكات البحث ولا وجود المكتبات الشاملة ولا البحث في خانة (الكتب) في غوغل، ولا البحث في المكتبات الرقميّة، ولا حتى وجود الكتب الرقميّة ولا حتى هذه الوَفرة من الكتب المترجِمة التي لم تكن قد وجدت بهذا الكَمّ في زمانه، ولا حتى سهولة شحن الكتب من دولة إلى أخرى، فإن أخطأ فمن الطبيعي أن يُخطأ، فإن كان يشتكي من عدم قدرته على اقتناء بعض المراجع من مصر -كما تقدم-، ومشكلته في التوفيق بين كونه رَبّ أسرةٍ وعاملًا غير متفرّغ وعدم توفّر الإمكانات المادية، فكل هذه أسباب تؤدي الى وجود نوع من الخطأ في العمل، فلو كنت في زمانه وطُلِبَ مني أن أكتبَ مراجعةً نقديةً لَمَا استطعت أن أَنسجَ على هذا المنوال، فلذلك كان المقصد من هذا التتبّع هو تبيان الثغرات التي قد توجَد في مؤلَّفات المؤرّخين لأستفيدَ منها

أنا أولًا ويستفيد غيري، ومع ذلك قد نقعُ مستقبلًا في أحد هذه الأخطاء التي ننبّه منها، لأنّ الكمال لله، والإنسان عُرضة الخطأ مهما اتّقى.

ودلالةُ ذلك أني بعد ما أنتهيت من هذه التعليقات أرسلتها لبعض المهتمين فوردتي بعض التصويبات وبعض الملاحظات ثم قرأت النص مرةً أخرى فوجدت أمور أخرى لم ينتبه لها هؤلاء الفضلاء، فصوبتها ناشدًا أن تكون المادة أقرب الى الكمال.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

ملحق

تعليق على قصيدة (ميمية البوعينين)

افتتح القصيدة بقوله:

وآل عينـــين أحبـــابي الـــذين لقـــوا مـــن دهـــرهم جَفـــوةً بعـــد تعظـــيمِ

وأظنّ أن هذه الأبيات مرتبطةً بما بعدها، إذ يقول بعد بضعة أبيات:

محمـــد بـــن خمـــيس بالخصـــوص فـــلا تنســـى حكومتـــه فـــيهم بتفخـــيمِ

وحصـــنه في متـــون البـــدع معـــترف بـــه كـــدرع ســـميك غـــير مفصـــومِ

فما قصة الجَفوة التي حصلت لهم بعد التعظيم وما دور محمد بن خميس في كل ما حصل؟

في تلك الأثناء كانت قبيلة البوعينين تسكن منطقة البدع -وهي نواة لِمَا يعرف لاحقًا بالدوحة في قطر- وكانت المنطقة تحت إدارتهم، وإدارتهم كانت تابعة لحكام البحرين آل خليفة، يقول لوريمير: «**في شهر يناير من عام ١٨٢٣م وخلال جولةٍ بحريةٍ استشكافيةٍ للساحل العربي قام بها الملازم الأول ماكليود إلى الدوحة (بدع في حينه) الواقعة على الجانب الشرق من قطر وجد بأنّ هذا المكان الذي كان تابعًا للبحرين وبالتالي خاضعًا لنصوص المعاهدة العامّة للسلام لعام ١٨٢٠م تحت إدارة شيخ آل بوعينين**»[٥١].

[٥١] ج. ج. لوريمر، دولة قطر في دليل الخليج، بيسان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ٢٠١٩، (ص١٨).

ولكن تعكّرت الأجواء بين حاكم البحرين آنذاك عبد الله بن أحمد آل خليفة وشيخ قبيلة البو عينين محمد بن خميس بعد أن قام الأخير بطعن أحد الرعايا البحرينين، فقام حاكم البحرين باعتقاله وحبسه، يقول لوريمير: «**في سنة ١٨٢٨م طعن محمد بن خميس زعيمُ آل بوعينين في الدوحة أحدَ سكان البحرين، فألقى به شيخ البحرين في السجن. وثارَت قبيلته، وفي شهر مايو من العام ١٨٢٨م قام الشيخ عبد الله بعد أن دمَّر حصن آل بوعينين في الدوحة بنقلهم إلى قريتي رويس وفويرط حيث أصبحوا تحت سيطرته على نحو مباشر أكثر من السابق**»[٥٢].

لعل هذه الجَفوة التي قصدها الشاعر، وهي ما جرى من اعتقال شيخهم وتدمير حِصنهم وتهجيرهم من مساكنهم.

ثم يقول الشاعر عن نسبهم:

مـــن دارِمَ نَسْـــلُهُم يَنْمَـــى إلى فخـــذٍ مِـــنَ الخوالِـــدِ بالأمجـــادِ مَزْحُـــومِ

وهذا القول هو نصف الحقيقة، فقبيلة البوعنين تنتسب إلى بني عبد الله بن دارِمِ بن مالك بن حنظلـة بن مـالك بن زيد مَناة بن **تميم**، وقد حشدوا الأقوالَ الدالةَ على ذلك والتي تُثبت أنّ العلاقة مع الخوالد هي علاقة حلفٍ ومُصاهَرَة.[٥٣]

[٥٢] دولة قطر في دليل الخليج، (ص١٩)، ورويَ أنّ شيخ البحرين أمرَ بالقبض عليه، ولكنّ قبيلته رفضت أن تُسلّمه وتمرّدت. [انظر: ماجد شبر، القبائل والصراعات السياسية والقبلية في تقارير الضباط والمعتمدين البريطانيين، دار الورق للنشر، الطبعة الثانية: ٢٠١٤، ص ٤٨٨].

[٥٣] انظر: http://benikhald.blogspot.com/2012/02/blog-post_22.html.

ولكنّ اللافت أنّ هذا القول شائعٌ جدًا بين الناس آنذاك، لدرجة أنّ لوريمير قال في نفس الفترة الزمنية تقريبًا عن البوعينين: «**فرعٌ من فخذ آل صبيح من قبيلة بني خالد**»[٥٤].

لذلك تجد أنّ بعض الأعلام من هذه القبيلة قد يُضاف إلى نهاية اسمه الخالدي، ولكن يَثبُتُ في نهاية المطاف على التميمي، مثل الشيخ الشهيد أبي عُمَرَ السيف تقبّله الله.

ثم ذكر الشاعر سبب تسميتهم بهذا اللقب (البوعينين)، فقال:

خَليـــدُ عَيْنَـــيْن مـــن آبـــائهم فَـــأتَى اســـمُ الْبُـــوعينين منـــه اســـمُ تَعمـــيمِ

أي أنّ هذا اللقب أتى من أحد أجدادهم وهو الشاعر خليد عينين، وكان ينزل أرضًا بالبحرين تُعرَف بعينين، فَنُسِبَ إليها[٥٥]، وهذا الشاعر يبدو أنّ اسمه خالد وصُغِّر في هجاء جرير له بخليد[٥٦].

ثم ذكر مساكنهم، فحدد مساكنهم في قطر فقال:

هـــم ســـمّتوا الدَّوْحَـــةَ الحَـــوْرَاء مـــن قِـــدَمٍ هُـــمْ أنشـــأوا الـــوَكرةَ الشَـــمَّا بتقـــويمِ

---

[٥٤] دولة قطر في دليل الخليج، (ص١٥٦).

[٥٥] ابن قتيبة الدِّينَوري، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية: ١٩٦٨ (٢/ ٤٦٣).

[٥٦] يقول الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء: (**فالظاهر أن أصل اسمه «خالد» فصغره جرير فشهر بالاسم مصغرا**)، وأصل البيت الذي هَجى فيه جرير خويلد موجود في كتاب (الكامل) للمبرد، ووردت في أحد نسخ المخطوطات وهي نسخة ليدن، فقد ورد فيها: (**قال جرير يهجو خالد**)، ولأجل ذلك ذهب أحمد شاكر إلى هذا التخمين. [انظر: محمد بن يزيد المبرّد، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة: ١٩٩٧، (١/ ٢٢) و (٢/ ١٠٢٠)].

ونلاحظ أنّ هذه المعلومات كانت قريبةً مما ذكره لوريمير إذ يقول عن البوعينين: «**وفي قطر يملكون ٤٠٠ منزل في الوكرة .....، ويُقال إنّ آل بوعينين هم الذين أسسوا حي الدوحة في مدينة الدوحة في أوائل القرن التاسع عشر، ولم يستقروا هناك طويلًا وتم إخراجهم منها عام ١٨٢٨م إلى الرويس وفويرط وفي النهاية أقاموا في الوَكرة**»[٥٧].

فبناءً على هذا النصّ فهم مَن أسس حي الدوحة (بدلًا من تأسيسهم الوَكرة)، ولكن ذكر لوريمر أن حول ٢٠٠٠ شخص من قبيلة البو عينين، يسكنون في الوكرة[٥٨]، بينما يوجد لهم حوالي ٢٠ بيت في البِدَع[٥٩]، ويقول الشيخ محمد آل ثاني بعد أن قُصفَت البِدَع ودمَّرَها الانجليز سنة ١٨٢٥م، وتَهَجَّرَ أهلُها، بَقِيَت مجموعةٌ من البو عينين تسكن فيها![٦٠] رغم أني لم أقف على أي مرجعٍ ذكرَ قصفَ الانجليز للبِدَع في تلك المرحلة.

وأظن أنّ أقدمَ مَن سكن الوكرة هم قبائل بني ياس، فأول نصٍ يُثبت سُكنةَ البو عينين في الوَكرة ذُكر أن كان فيها ناس من بني ياس، وأمّا سبب انتقال البو عينين إلى الوَكرة أوّل مرة، كان بحسب ادّعاء الشيخ محمد بن أحمد آل ثاني، أنّ سيد عُمان حشّد لحملة على البحرين سنة ١٨١٦م، ولكنّ الحاكم آنذاك الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة «**عرض عليه المصالحة على أن يدفع له مبلغًا من المال**

---

[٥٧] دولة قطر في دليل الخليج، (ص١٣٧).

[٥٨] انظر: دولة قطر في دليل الخليج، (ص١٢٤).

[٥٩] انظر: دولة قطر في دليل الخليج، (ص١٣٣).

[٦٠] لمحات من تاريخ قطر رواها الشيخ محمد بن أحمد بن ثاني، جمع وإعداد: الشيخ ناصر بن علي بن أحمد آل ثاني، طبعة خاصة: ٢٠٠٦، (ص١١٣).

يؤديه له كل سنةٍ، فوافق سيّد مَسقط، ولكن القبائل القطرية رفضت ذلك، فانتقلَ البو عينين من البحرين إلى الوَكرة وفيها بني ياس»[٦١].

وبعدها حصل خلافٌ لهم مع الحاكم الذي أتى بعده وهو الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة، فأدّى هذا الأمر إلى هجرتهم من قطر، ولمّا انقلَبَ الشيخ محمد بن خليفة على الشيخ عبد الله بن أحمد، أَرضاهم الشيخ محمد وأَسكَنَهُم منطقة الوَكرة[٦٢].

فلعل مقصد الشاعر هو أنّ هذه القبيلة هي مَن أَحْيَت هذه المنطقةَ فباتت كالمؤسسة لها، ولا يَلزَمُ أنها أولَ مَن سَكَنَ فيها.

ويُلاحَظ أنّ قبيلة البو عينين كانت تقف في صف آل خليفة في المعارك التي جَرَت في قطر.

فلمّا هَجَم أهل الدوحة بجيشٍ كان يقوده قاسم آل ثاني على عامل آل خليفة في قطر وهو أحمد بن محمد آل خليفة، قامت هذه القوة بمحاصرة قلعة الوَكرة – حسب الرواية البحرينية– بينما تقول الرواية القطرية أنه حصلَ قتالٌ وانتصر جيش ابن ثاني، ولكن اتُّفِقَ أنّ الذي ساعد في تهريب أحمد بن محمد آل خليفة عامل البحرين في قطر من قلعة الوَكرة هو راشد بن مبارك بن خاطر البو عينين[٦٣].

---

[٦١] لمحات من تاريخ قطر، (ص١٠٩).

[٦٢] انظر: لمحات من تاريخ قطر، (ص٨٠).

[٦٣] انظر: لمحات من تاريخ قطر، (ص١٣٩)، وانظر: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، (ص١٢٤)، ومحمد آل ثاني ذكر أن الرجل اسمه راشد بن علي، والنبهاني ذكر أنّ اسمه راشد بن مبارك.

وبعد معركة الحمرور ومقتل عامل آل خليفة في قطر وهو أحمد بن محمد آل خليفة، أمرَ حاكم البحرين آنذاك الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة شقيقه علي بن خليفة بغزو الدوحة والأخذ بثأر أحمد بن محمد، وساعدَهم في هذا التجهيز شيخ أبو ظبي وشيخ البنعلي وشيخ البو عينين، وأغار ابن خليفة وشيخ أبي ظبي على الدوحة وخَرَّبوها[٦٤].

وبعد أن تجهَّزَت قبائل الدوحة لغزو البحرين، فيما يُعرَفُ لاحقًا بوَقعة (دامسة) سنة ١٨٦٨م ولما حصلت المعركة البحرية بين أهل قطر وأهل البحرين كُسِرَ أهل قطر، ولمّا رجعوا إلى قطر تجمّعوا في الوَكرة، فأرسلَت قبيلة البو عينين رسولًا إلى حكّام البحرين تخبرهم بأن القبائل قد تجمّعت في الوَكرة[٦٥]، فأدّت هذه المعلومة إلى تجهّز قوات البحرين مرةً أُخرى لخوض معركة جديدة، ولكن هذه المرة في قطر، وأدّت هذه الهجمة إلى انكسار أهل البحرين.

وانفرد محمد علي التاجر بخبر أنّ قبيلة البوعينين قاتلَت مع آل خليفة في الهجوم الذي جرى بعد معركة الدامسة في قطر؛ ولكنهم انسحبوا أثناء المعركة[٦٦]، لذلك يبدو أنّ هذا ما جعلهم مقبولين عند الطرفين فيما بعد ليكونوا وسطاء، فقد أَرسل إليهم حاكم البحرين محمد بن خليفة آل خليفة ليكونوا هم الوسطاء بينه وبين أهل قطر، يقول محمد آل ثاني: «**فأرسل محمد بن خليفة إلى البو عينين طالبًا منهم السعيَ في الصلح بين أهل قطر، ومبادلة جاسم بإبراهيم بن علي، والخليفي الثاني،**

[٦٤] انظر: لمحات من تاريخ قطر، (ص١٤٤-١٤٥).

[٦٥] انظر: لمحات من تاريخ قطر، (ص١٤٧).

[٦٦] انظر: محمد علي التاجر، عقود اللآل في تاريخ جزائر أوال، مركز أوال للدراسات والتوثيق، الطبعة الأولى: ٢٠١٧، (٥١٣).

فوافقَ أهل قطر على الصلح، ورجعت قبائل قطر إلى الدوحة، والوَكرة، وشَدّوا البو عينين ونزلوا الغارية»[٦٧].وإذا كانت معركة دامسة سنة ١٨٦٨م، فلعل هذا إشارةٌ إلى أنّ منطقة الغارية التي تأسست على يد البوعينين كانت هذه سنة تأسيسها.

ولكن هذا لا يمنع أن يُشارك آحادهم أو بعضهم في جيش قطر، مثل المطوَّع أحمد بن شاهين البوعينين والذي كان في الصفّ الأوّل في الدفاع عن الوَكرة أمام جيش أهل البحرين، بل حَثَّ أهل قطر على القتال وأنّ قتلاهم في هذه المعركة شهداء، يذكر هذا الخبر راشد البنعلي إذ يقول: «**ولمّا اجتمعَ أهل البحرين على ساحل الوَكرة من الشرق معهم المدافع مشوهرين بالجوخ الأحمر، ظهر لهم أهل قطر زمزوم فيهم الشيخ شاهين بن أحمد [البو عينين] بعد ما صلى بهم رَكعتين قام يُحدّثهم وقال لهم: (يا أولادي والله ما يُقتَلُ منكم اليوم رجلٌ دون مَحرَمِهِ إلا أدخله الله الجنة شهيدًا، فاللهَ اللهَ في وطنكم ومنشركم)، ثم أخذ غِمْدَ سيفه وكَسَرَهُ على رأسه وسَبّل بالعلم وسَبّلوا معه مُكَبّرين فانكسرَ أهل البحرين لا يَلوون على شيء**»[٦٨].

وبعد معركة دامسة أتت وقعة الضلع سنة ١٨٦٩م؛ والذي حصل فيها انقلابٌ داخل بيت الحكم في البحرين، وأدّى هذا إلى مقتل الحاكم علي بن خليفة واعتقال شقيقه محمد بن خليفة، ولجوء ابن الحاكم عيسى بن علي آل خليفة إلى قطر، وتولي

---

[٦٧] لمحات من تاريخ قطر، (١٤٩).

[٦٨] راشد بن فاضل البنعلي، مجموع الفضائل في فن النسب وتاريخ القبائل، تحقيق: حسن بن محمد آل ثاني، بدر للنشر، الطبعة الثانية: ٢٠٠٧ (ص١٤٧).

محمد بن عبد الله آل خليفة الحكم في البحرين، والذي أرسل إلى قبائل قطر يحثّها على مُناوَأَة عيسى بن علي ومَن معهم، فبات هؤلاء -حسب وصف النبهاني- في أسوء حال بسبب هذه التهديدات[٦٩]، ورغم ذلك أتاهُ شيخ قبيلة البوعينين راشد بن خاطر البو عينين وأعطاه مبلغ ١٥ ألف قران وقال إنّ هذه دَيْنٌ لوالدك عَليَّ[٧٠].

وبعدها أتت وقعة القارية في قطر سنة ١٨٨٥م، وكان سببها -حسب كلام مؤرخ العائلة الحاكم في قطر محمد الشيباني- أنّ رجلًا يُسمّى محمد بن عبد الوهّاب الفيحاني، والذي كان تاجرًا ثريًا قد استأذن من قاسم بن ثاني أن يسكن الغارية من بلاد قطر، فَأَذِنَ له، فبنى قلعة محصنة في الغارية، وأخذ يجمع الناس والقبائل حوله، ويبذل الأموال لذلك، فأتت إليه القبائل من البوكوارة، والنعيم، والبوعينين، والعمامرة فتهادوا معه، ثم يقول: «**زاحمَ بتصرفاته هذه سلطان الشيخ قاسم ابن ثاني وتجاهر له بالعداء؛ فجعل يَتَحَيَّنُ الفرص للقضاء عليه والتخلّص منه .. ثم إنّ الشيخ قاسم أَوْعَزَ إلى جيشه أن يحتلَّ الغارية؛ فهجمها الجيش ليلًا، فلمّا رأى محمد بن عبد الوهاب ذلك جَمَعَ أهله وعياله وغادروا الغارية قبل الهجوم عليها بثمان ساعات. فخربت الغارية في هذه الواقعة، وتَفَرَّق أهلها، وذهب آل جبران وهم راشد بن علي البوعينين وجماعته إلى البحرين، وأمّا محمد بن عبد الوهّاب فقد طَلَبَ من الدولة العثمانية أن يسكن معه والبوعينين**

[٦٩] انظر: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، (ص١٣٣).

[٧٠] انظر: عبد الله بن خالد آل خليفة، الأحداث التي أدّت إلى انفصال شبه جزيرة قطر عن البحرين، ورقة خاصة، (ص٤١).

الذين ذكرناهم في دارين»[٧١]، ولكن في السنة التالية سمح قاسم بن ثاني إلى قبيلة البوعنين بالعودة إلى قطر مجددًا[٧٢].

وبعد عودتهم حصلت مشاكل من نوع آخر مع الشيخ قاسم بن ثاني أدت الى هجرتهم مجددًا، ولكن ترتيب الأحداث نوعًا ما غير واضح، يقول ابن مانع في يومياته: «**وحسن** [بن عبد الله ابن ثاني] **أخواله آل بو عينين الذين جُلوا من الوكرة إلى الجبيل بسبب منافسة عبد الرحمن بن قاسم لهم**»[٧٣].

وحسب وثيقة بريطانية فقد سعى عبد الرحمن بن عبد الله آل ثاني سنة ١٩٠٧م الى فرض ضرائب عالية على القوارب في ظرف سيئ، وقام بسجن شيخ قبيلة البوعينين. وبسبب هذا التصرّف حاول ابن زعيم القبيلة إطلاق النار على عبد الرحمن بن جاسم، ولكن أمّه أعاقته عن فعل ذلك، ثم اعتقل هو الاخر ليوضع مع أبيه في السجن. في هذه الأثناء، بادر الشيخ جاسم آل ثاني، حاكم قطر، بالعفو عن السجينين وإطلاق سراحهما مقابل دفع الضريبة[٧٤].

وبعدها بسنة وفي أواخر العام ١٩٠٨م أُعيد ذات المشكلة، وقد رفضت القبيلة دفع الضريبة السنوية على القوارب، وقد قام الشيخ عبد الرحمن بن جاسم بتغريم القبيلة كلها ١٠ آلاف ريال، وأصرّ في معرض عقابه للقبيلة على طرد ستة من

---

[٧١] محمد شريف البياني، إمارة قطر العربية، ١٩٦٢، (ص٥٨).

[٧٢] انظر: لمحات من تاريخ قطر ، (ص١٦٦).

[٧٣] قطر في مذكرات ابن مانع، تدوين عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، (ص٥٦).

[٧٤] انظر: حمزة الحسن، استقرار آل بوعينين في قصر الصبيح، مجلة الواحة، العدد الأول، ١٤ أكتوبر ٢٠٠٧م، رقم الوثيقة: I. O. R /15 /1 /710 R.

رؤسائها عن البلدة[٧٥]. وهذا ما دفع القبيلة لأن تقدم شكوى إلى الدولة العثمانية والتي ردت عليهم من خلال والي البصرة، ونصحهم بأن: «**يتعايشوا بشكل طيّب مع الشيخ قاسم**»[٧٦] ولم تُنصفهم.

وفي العام الثالث ١٩٠٩م كانت الهجرة بعد أن تكررت ذات المشكلة، وبعد أن توسط المعتمد السياسي في البحرين س. ف. مكنزي لتسوية الموضوع بين ابن ثاني وقبيلة البوعينين، ولكن لم تتم تسوية الموضوع، فغادرت القبيلة بأكملها بعد أن أحرقت بيوت القش التي بنتها، وغادرت باتجاه قصر الصبيح شمال القطيف[٧٧].

أما سبب هذه الضرائب، فيقول خالد الفرج: «**وفي سنة ١٣٢٤هـ حصلت أزمة اقتصادية أنزلت بأهل اللؤلؤ خسائر فادحة كان الشيخ قاسم أكثرهم تأثرًا بها لكثرة ما لديه من اللؤلؤ مما أثر في ماليته أسوأ تأثير واضطره الى أن يفرض الرسوم الجمركية ويأخذ القلايط على أهل الغوص، وقد غاضبته على دفع القلاطة عشيرة البوعينين، فنزحوا من قطر وأسسوا بلدة الجبيل سنة ١٣٢٧هـ ولا يزالون فيها**»[٧٨].

ثم يُكمل الشاعر ذاكرًا مواطن القبيلة:

منهم بنو قُتُبٍ في الذيد مَسْكَنُهُمْ وحَوْضُهُم في جبيل غير مثلومِ
وفي العبا أمرُهُم قَد أَنْفَذُوهُ وفي البحرين من عسكرٍ قاموا بترميمِ

---

[٧٥] المصدر السابق، رقم الوثيقة: I. O. R R/15/1/710 (لعالم ١٩٠٨م)

[٧٦] زكريا قورشون، قطر في العهد العثماني (١٨٧١-١٩١٦م) دراسة وثائقية. ترجمة: حازم سعيد منتصر، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨، (ص١٧٧).

[٧٧] انظر: حمزة الحسن، المصدر السابق، رقم الوثيقة: I. O. R R/15/1/710 (لعالم ١٩٠٩م)

[٧٨] خالد سعود الزيد، سير وتراجم خليجية في المجلات الكويتية، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٩٨٣م، (ص٢٣).

والذيد هي منطقة بالشارقة في الإمارات حاليًا، وهذا يُشير إلى انتشارهم في قطر والإمارات والمنطقة الشرقية في السعودية بالجبيل وفي واحة العبا بالقَطيف، والبحرين.

بنو قُتُب الموجودين في الشارقة هم في الأصل حلف، وتنطق بالعامية (الجتب) ومفردها (الكتبي)، ولعلّ الجزء الذي يَرجع إلى البوعينين منهم هو في الأصل ضمن الذين وَفَدوا إلى أبو ظبي واستمروا في العيش هنالك وتنقّلوا فيها، يقول الشيخ محمد بن أحمد آل ثاني أن قبيلة البو عينين هاجرت إلى أبي ظبي بعد الخلاف مع عبد الله بن أحمد آل خليفة[٧٩] ولكنه لم يذكر سبب الخلاف، وأمّا السبب الذي جعلهم يهاجرون -حسب كلام لوريمر- فهو أنّ قبيلة البوكوارة بتحريض من حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة شنّت هجومًا على منطقة الحويلة، وأدّى هذا إلى غرق أحد الزوارق ومقتل أحد خدّام عيسى بن طريف البنعلي، ورفض عبد الله بن أحمد آل خليفة إعطاء أي تعويضات جراء ذلك، فأدّى الأمر في نهاية المطاف إلى هجرة عيسى بن طريف البنعلي مصحوبًا بعدد من أفراد آل بن علي وآل بو عينين إلى أبو ظبي[٨٠].

أمّا وجودهم في الجبيل، فأظنّ أنه قديمٌ إن لم يكن الأصل؛ لذلك بات مكانًا مناسبًا لتلجأَ إليه قبيلة البوعنين بعد خلافٍ جَرَى مع ابن ثاني.

وأمّا وجودهم في البحرين، فحاليًا هم منتشرون في عدة مناطق ومدن؛ إلا أنّ هذه الأبيات تذكر أنّ مواطنهم الأصلية قبل انتشارهم هي عسكر والمحرّق،

---

[٧٩] انظر: لمحات من تاريخ قطر، (ص٨٠).

[٨٠] انظر: دولة قطر في دليل الخليج، (ص٢٠).

ونلاحظ تطابق هذا البيت مع ما أورده لوريمير إذ يقول عن البوعينين: «**أمّا في البحرين فيملكون ٧٥ منزلًا في عسكر، و ٢٠ منزلًا في المحرق**»[٨١].

وأمّا قول الشاعر أنّ هذه القبيلة هي من قامت بترميم عسكر؛ ذلك لأنها كانت قبل ذلك خرابًا غير مسكونةٍ، يقول علي حسن البلادي (ت:١٩٢٢م): «**والعسكر قريةٌ من قُرَى البحرين في طرفها الجنوبي وهي الآن خراب غير مسكونة**»[٨٢]، ولا زال لهم وجودٌ في عسكر، بل إنّ مجلسهم العام يكون في مقدمة القرية أول ما تدخلها، وفي قريتنا -الرفاع الغربي- لهم وجودٌ أيضًا وهم بيت سالم البوعينين وكذلك أخذَت أُسرةٌ أُخرى الاسمَ بالمصاهرة وإنما هم دواسرٌ في الأصل.

ثم ذكر شيخ فريج (فريج بن خاطر أو البوعينين):

واذكـر أبـا أحمـد شـيخ الفريـق وقـد نـــاب المحـــرّق أعســـار بتغـــريمِ
فَهَـبَّ يُجـزي العطايـا غـير مُكـتَرِثٍ حتـى اسـتدانَ لِيُعْطِـي كُـلَّ مَعـدومِ

هنا ذَكَرَهُ بكُنْيَتِهِ؛ وذكر شيئًا من صفاته، وهي الكرم، إلى درجة الاستدانة لينفق على المعسورين والمحتاجين، وفي قصيدة سابقة وهي (**سلام على البحرين**)، ذكر شيء من صفات هذا الفريج (أو الحي) وهو أنه مطل على البحر، فكان يقول:

---

[٨١] انظر: دولة قطر في دليل الخليج، (ص٢٠).

[٨٢] علي البلادي، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين، تصحيح: محمد علي الطبسي، دار المرتضى، ١٩٩١، (ص٧٠).

وإني إلى أهـــل المحـــرق تــــائقُ هـــل لي أن أنســـى مجالســـها الزهـــر

ســـلام عـــلى أحيائهـــا وأخصـــها فريـــق البـــوعنين المنيـــف عـــلى البحـــــــــــــــــــــــــــــر

إلا أنّ بعد عمليات الدفان لم يعُد هذا الحي مطلًا على البحر.

وأمّا سبب تقسيم أحياء المحرّق بناءً على أسماء القبائل، فمثلًا تجد فريج (البنعلي) و(المُرّة) و(العمامرة) الخ..، فذلك كما يقول مبارك الخاطر في كتابه الآخر: «**كانت كل قبيلةٍ تتخذ لها حيًا تسكنه، فتأتي إلى موقع في العراء لا يشاركها فيه أحد فتبني مساكنها فيه، وهذا ما يشاهد حتى الآن واضحًا في كُلٍّ من المحرّق والمنامة والحدّ والرفاع وما إليها**»[٨٣].

وهذا يعني أنّ هذا الحي هو أول موطنٍ تستقرّ فيه القبيلة بهذه المنطقة، فيكون مَسقطَ رأسها، ولعل امتازت المحرّق ببقاء هذه التسميات حتى يومنا هذا، وهذا واضحٌ إذا دخلت سوق المحرّق الشعبي، فترى اللافتات التي تدل على أسماء الأحياء بناءً على أسماء الأُسَر، وهذا لا يمنع من طروء تغيّرٍ ديموغرافي على المنطقة بزوال أهلها الأصليين ووفود آخَرين عليها، كما هو الحال في حي البنعلي الذي بات يسمى بحي كَريمي.

ثم ذكر اسم شيخ الحي هذا وما فعله مع الملك عبد العزيز آل سعود عندما أتى إلى البحرين فقال:

محمـــد الحســـن بـــن الخـــاطر انفتحـــت لـــــه كنـــوز المعـــالي دون تَقلـــيمِ

---

٨٣ القاضي الرئيس قاسم بن مهزع، (ص٥١).

هـو استضـاف أمـير العـرب في عسرٍ ـ عبـد العزيـز وخويَيْـهِ بتكـريمِ
مـذ أَمَّ مسـجده في ليـل مظلمـةٍ فبـات فيـه بتحنـانٍ وتَنعـيمِ
فقـامَ مَعَـهُ إلى عيسـى المليـك ولم يَدَعْـهُ إلا عـلى عَـزٍّ وتَعظـيمِ

في سنة ١٨٩١م زارَ عبد العزيز آل سعود البحرين، وكانت هذه الزيارة بعد سنةٍ من سقوط الرياض بعد معركة المليداء سنة ١٨٩٠م على يد ابن الرشيد، فأرسل عبد الرحمن ابنه عبد العزيز إلى البحرين ليستأذن حكمها لكي تسكن فيها نساءه، يقول الزِّرِكْلي: «**ولم تكن حياة البادية وشدائدها مما تتحمّله سيّدات الرياض وسدير، وقد آذاهنّ ما لقينَ في الحِل والتِّرحال، وما في اختراق الدهناء من عناء، فنادى عبد الرحمن ابنه عبد العزيز، وقال: امضِ يا بُنيَّ إلى ابن خليفة وحدّثه بما نحنُ فيه، واستأذنه لنسائنا بالإقامة في جواره، ولا ضيرَ عليه من ابن رشيد، ما دمنا نحن بعيدين عن البحرين، وأُنيخت الركائب فامتطى عبد العزيز إحدى نياقها، وعاد بعد أيام مستبشرًا يحمل إذن ابن خليفة للنساء**»[٨٤]، فكان هذا سبب الزيارة، وهو وضع النساء في مكانٍ آمنٍ ومريحٍ واستئناف القتال في محاولة استرداد الرياض.

وهذه الأبيات تحكي أنّ محمد بن حسن الخاطر – شيخ الفريج– هو مَن أَمَّ في عبد العزيز آل سعود وأنهم وصلوا مساءً وناموا في المسجد؛ فلعله كان إمام المسجد.

[٨٤] خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة: ١٩٩٢، (١/ ٦٣).

وحسب رواية عبد الله بن سلمان آل مبارك: «**أخبرني والدي سلمان بن مبارك بن عبد الله آل مبارك (رحمها الله) عن والده مبارك ولقائه مع الملك عبد الرحمن آل سعود وابنه عبد العزيز وعبد الله بن جلوي وخمسة مرافقين بأنهم جاؤوا إلى البحرين ووصلوا مدينة المحرّق، ودخلوا في مسجد بن خاطر، وكان المؤذّن في ذلك المسجد جَدي مبارك بن عبد الله آل مبارك ولمّا دخل المؤذّن المذكور إلى المسجد، كان بيده سراج غاز، لأنّ الكهرباء لم تكن قد دخلت بعدُ المساجدَ.. أَذَّنَ لصلاة العشاء، ولكن الجَدّ مبارك رأى هؤلاء الرجال الثمانية على أنهم من الأَغراب، فسأل عنهم، وأخبروه بالحقيقة، ولمّا صلوا صلاة العشاء جماعةً، توجّه الجَدُّ إلى المنزل وأمرَ لهم بالعشاء، وأخذه إلى المسجد، ولمّا تعشَّوْا تناولوا القهوة وناموا إلى الفجر، وبعد الصلاة أحضرَ لهم الفطور والقهوة، وذهبَ الجَدُّ إلى الشيخ عيسى بن علي وأخبره عنهم، وفرح الشيخ عيسى، وطلب من الجَدّ أن يُحضرَهم إلى مجلسه، ولمّا جاؤوا إلى الشيخ عيسى حَيَّاهم ورَحَّبَ بهم ومكثوا في ضيافته إلى أن توجّهوا إلى الكويت**»[٨٥].

وإخوان الملك عبد العزيز الذين أشار لهم الشاعر ذكرتهم هذه الرواية، وهما سعد ومحمد. ولكنّ الرواية ذكرت عددًا أكثر أتى مع الملك عبد العزيز.

وصاحب الرواية أعلاه هو عبد الله المبارك؛ كان عمره أثناء اللقاء سنة ٢٠١٤ حول ٩٥ سنة؛ ولكن هناكَ روايةٌ أخرى أقدمَ منها، حكاها المعمَّر جابر بن صباح سيادي لتلفزيون البحرين سنة ١٩٨٣م، إذ يقول: «**عندما أتى عبد العزيز إلى**

[٨٥] حافظ عبد الغفار، يبلغ الـ ٩٥ من العمر وذاكرته حديد .. عاصر خمسة من حكام البحرين، صحيفة الأيام، العدد ٩١٨١ الجمعة ٣٠ مايو ٢٠١٤ الموافق غرّة شعبان ١٤٣٥هـ.

البحرين كنا موجودين وصِغار، فأتى الملك عبد العزيز بن سعود إلى مسجد بن خاطر، وكان عندهم سحيحه[٨٦] في كيس، وليس لديهم من الدنيا شيء، وكان يوجد هناك جليب في المسجد فشربوا منه ماء وناموا، فلمّا أتى الصباح خرجوا من المسجد، فسألوا عن بيت عيسى بن علي حتى وصلوه، وكان هناك شخصٌ يُقالُ له سالم بن مبارك وهو كان عَبدًا، ومن تنتهي صلاة الصبح كان يأتي ويقف أمام بيت الشيخ عيسى، وهو يسأل ويتكلم مع مَن يأتي إلى بيت الشيخ عيسى، فأتى هؤلاء والشخص الذي دَلّاهم على بيت الشيخ عيسى بن علي، وقال هذا رجل الشيخ عيسى، فسألوه: هل الشيخ عيسى موجود؟ فقال لهم: من أنتم، من البداة؟[٨٧] فقالوا: نحن عمانك ولسنا من البداة، فقال: أهلا وسهلاً بالأعمام، والشيخ عيسى موجود وسوف أبلغه، ولكن ما هي أسمائكم؟ فقالوا: عبد العزيز بن سعود وابنه سعود، فأخبر الشيخ عيسى بذلك وسأله: كيف هي هيئتهم؟ فقال: ليست جيدة، فأمر لهم بأن تُحضَرَ لهم الكسوة والاجوخ[٨٨] والبشوت والاغتر، وهنالك دارٌ صغيرة في الدهريز عند عيسى بن علي، فَالي يأتي لافي يدخلونه هناك فدخلوا ولَبسوا الملابس، حتى تكون نفس الملابس التي على الشيخ عيسى بن علي عليهم، ثم استقبلهم الشيخ عيسى بن علي .. »[٨٩].

---

[٨٦] السحة هي التمر، وسحيحة هي تصغير للكلمة ومعناها أن ليس معهم إلا الشيء القليل من التمر.

[٨٧] البداة، أظنه يقصد سؤالهم إذا كانوا من البادية؛ ولعل هذا السؤال طرأ عليه بسبب هيئتهم.

[٨٨] يقول مبارك العماري: "اليوخ أو الجوخ هو من ملابس الرجال التقليدية"، وفي ذلك يقول الشاعر فرج بو متيوح: (لبّاسة اليوخ كِثروا بالزُرويْ وشال)، [انظر: مبارك العماري، فرج متيوح، المطبعة الحكومية لوزارة الإعلام البحرين، الطبعة الأولى: ١٩٨٣، (ص٤٩)]، واليوخ هو اللبس الفاخر الذي لا يلبسه إلا علية القوم، وبقيت هذه الكلمة إلى وقت قريب للدلالة على اللبس الفاخر فيقال لصاحبه: إيش هذه الجخّة؟

[٨٩] قناة البحرين، برنامج صفحات من تاريخ البحرين، حوار حسن كمال مع الحاج جابر بن صباح سيادي، الرابط: https://youtu.be/-CusF9Qpf3Q

هذه الحلقة سُجِّلَت عام ١٩٨٣ والزيارة حصلت سنة ١٨٩١ فإن كان جابر سيادي أدركها؛ فهذا يعني أنه عندما سَجَّل هذه الحلقات، كان عمره أكثر من ٩٠ سنة.

وفي رواية سيادي ذكر أنّ الملك عبد العزيز أتى ومعه ابنه سعود الذي أصبح الملك بعده، وهذا لا يصحّ؛ لأنّ الملك سعود ولد سنة ١٩٠٢م، ولا حتى ابنه الآخَر والأكبر تركي الذي ولد سنة ١٨٩٦م، فعندما زار الملك عبد العزيز البحرين لأول مرة لم تكن له ذرية، وإنما الصحيح هو شقيقه الأصغر منه محمد.

وفي روايته إشارةٌ إلى الحالة الصعبة التي كانوا عليها بعد سقوط الرياض من حيث الهيئة، وهذه الرواية شهيرةٌ سمعتها من غير واحد من كبار السن، وهي أشبه بالمتواترة.

ثم تكلّم الشاعر عن عبد الله بن محمد بن حسن بن خاطر البوعينين، وقال:

بنـــو محمـــد كثـــر في عـــدادهمو ... لكـــن أفَضّـــل عبـــد اللهَ بتقـــديمِ
واليـــوم أرثيـــهِ مرتـــاعَ الفـــؤاد فقـــد ... اغتُيـــلَ غـــدرًا بتحـــريضٍ وتصـــميمِ
رَمـــاه مرتـــزق بكـــف مرتشيـــ ... فاســـتهدف المجـــد والعُليـــا بتهـــديمِ
رب المعـــالي شـــيخ في جماعتـــه ... ســـامي المكانـــة بـــين العـــرب والـــرومِ
جـــاءت مراثيـــه عشرـــ في تعـــددها ... حســـب اعتقـــادي وقـــد تربـــو بترقـــيمِ
بكـــاه فيهـــا أســـاطينُ العلـــوم ومَـــنْ ... آخـــاهُ فيهـــا بتـــدريسٍ وتعلـــيمِ
يـــا مقصـــد العلـــماء النجـــب تجمعهـــم ... في حضـــن مكتبـــة مـــن كـــل معلـــومِ
قـــد كنـــت في قطـــر نجـــماً وهالتـــه ... تعـــم آفاقنـــا مـــن غـــير تهـــويمِ

عليـــــكَ رحمـــــاتُ ربي في تنَزُّلِهـــــا تلـــف نفســـك في حـــلٍ وتنعـــيمِ

والشيخ عبد الله بن خاطر له ترجمتان وقفتُ عليهما، تفسّران شيئًا من هذه الأبيات.

الأولى: للشيخ القطري عبد الرحمن بن عبد الله بن درهم (ت: ١٩٤٣)، وهي طويلة ويقول فيها:

«وفي سنة ١٣٢٦هـ ستة وعشرين بعد الثلاثمئة والألف: قسم الله أن المرحوم عبد الله بن محمد بن خاطر يخرص للقنص مع صاحب له وبعض خدامه، واتفق أن يعرض لهم ركبٌ من آل جابر، وأغَاروا على عبد الله وأصحابه، ورماهم عبد الله وأصاب منهم رجلًا، رموا عليه عدّة بنادق وقتلوه، فلما وصل خبر مقتله البلاد حزن الناس عليه حزنًا شديدًا لِمَا يَعهدونَ فيه من حُسن السيرة وجميل الأخلاق، وكرم الذات، ورُثيَ بالمَراثي الفائقة، وممن رثاه الشيخ محمد بن حسن المرزوقي رحمه الله بمَرثية طويلةٍ أجادَ فيها، واستقصى جميع مآثره، ولم أظفَرْ بها، ثم إنه أرسلها إلى الشيخ سليمان بن سَحمان وطلب منه أن يساعده بمَرثيةٍ أخرى فأجابه بقوله. وحيث ذكرت مَرثية الشيخ سليمان بن سَحمان رحمه الله في المرحوم عبد الله بن محمد آل خاطر، أحببت أن أذكر طرفًا من سيرته وحُسن سمعته، ومروءته، وهو عبد الله بن محمد بن حسن بن خاطر العيوني من القبيلة المعروفة بآل أبي عينين، وكان الشيخ المرحوم قاسم الثاني رحمه الله جده لأُمّه، ومات أبوه صغيرًا وربي في كنف جده الشيخ قاسم وخاله الشيخ عبد الله بن قاسم وناله ببركة تربيتهما صلاحٌ وحُسن أدبٍ وعِفّةٌ وسمو للمكارم، واجتنابٌ للرذائل، ولمّا

تَوَسَّما فيه مخائل النَّجَابة جَلَّ في أعينِهما، وأَمَدَّهُ من المال بما جَمَّلَهُ وأَغْنَاهُ، وكان يَتَّجِرُ في اللؤلؤ ورُزِقَ في تجارته قَبولًا وبركةً وحُسنَ توفيقٍ. وكان رحمه الله من خِيار بني جنسه من جميع أحواله، ذا دينٍ مَتينٍ ومحبّةً لأهل العلم والصلاح، وكان كثيرَ المطالعة في كتب العلم والتواريخ والأدب، وكان ذا شفقةٍ على أقاربه وذَويهِ وأصحابه ومَن يُدانيه، يَبذِلُ لهم من الإحسان ما يَقدِرُ عليه بتواضعٍ وتوددٍ ونفسٍ مطمئنةٍ، لا يَمَلُّ جَليسه ولا يَنفر منه أَنيسهُ، فَرُزِقَ لذلك محبةً من الخاصّ والعامّ، ونظر بعين الإجلال والاحترام، وكان كثير التلاوة للقرآن، وكان مواظبًا على الأوراد الواردة في الصباح والمساء، لا يُخِلُّ بها. أمّا الكرم والسماحة، وحُسن الخلق ومُحسن المحاضرة لِمَن جالسه فقد أخذ من ذلك بحظٍ وافر، وكان ذو عقيدةٍ سلفيةٍ محبًا لأهل هذه العقيدة، قاليًا لِمَن سواهم، وكان مواظبًا على الصلاة في أول وقتها، وتفقّدًا جيرانه وخدامه مؤدّبًا لمن تَخَلَّفَ عنهم بلا عُذرٍ، ولم يزل يزداد من الخصال الحميدة إلى أن اخترمته المنية. أَحَلَّهُ الله أعلى منازل الأَبرار آمين»[٩٠].

والثانية: فقد ذكرها إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن (ت: ٢٠٠٤)، ويقول فيها:

«ثم دخلت سنة ١٣٢٩ هـ وفيها توفي الشيخ عبد الله بن خاطر قدس الله روحه ونور مرقده وضريحة، وهو العالم العارف الصابر الجواد الكريم السخي ذو الفضل والمعرفة، عبد الله بن محمد بن خاطر المعروف بالدين والفضل والمنتظم في سِلك أهل هذه الدعوة الوهابية النجدية مظهر التوحيد ومُبيد الكفر والتنديد،

[٩٠] عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم، نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار، المكتب الإسلامي: ١٩٦٠م، (المجلد الثاني، ص١٠٥٨ و١٠٦٢-١٠٦٣).

كان مكرمًا لحملة العلم والدين وحبرًا جليلًا وثقةً نبيلاً، يقصده أهل الإيمان ويألَفُهُ أهل الفضل والعرفان فيجدون عنده ما يؤملون، ويكفيك شرفاً له أن يبعث إليه الشيخ سليمان بن سحمان يطلب منه أن يطبع ردوده على أعداء الله ورسوله لمّا انتشر ما طَبَعوه في مَسَبَّة الشيخ الإمام وعَلَم الأعلام محمد عبد الوهّاب، وما رَمَوْهُ به من الأكاذيب والتُّرَّهَات، وكان صندوق الحكومة السعودية إذ ذاك خاليًا بواسطة نفقات الحروب والغزوات، فبعث يُشجّعه ويَستنجده علمًا بأنه العَضُد الأشدُّ في نُصرة الدين ومُكافحة الكفار والمنافقين، فإذا كان أولئك الزنادقة يبحون بما لديهم من الكُفريات والضلالات، وعندنا أعظم مصادمةٍ لها وقوة مَلَكة وإرادة، غير أنه لا مطابعَ عندنا ولا نفقةَ للطبع، فإنا نستنجِدُ بك يا عبدَ الله، ونرجوك المساعدة في نشر هذه الردود لمصادمتها خُرافاتِهم وتمويهاتهم»[٩١].

وتحديد سنة الوفاة عند ابن درهم أَضبط من ابن عبيد؛ باعتبار أنّ ابن درهم معاصر للشيخ عبد الله بن خاطر وبينهما مراسلات وسجالات شعرية وكلاهما من قطر.

يقول الشاعر:

جاءت مراثيه عشرٌ في تعددها حسب اعتقادي وقد تربو بترقيمِ

الذي وقف عليه مبارك الخاطر هي مَرثية ابن سَحمان، ومَرثية ابن درهم، ومَرثية أحمد بن ماجد، وفي ترجمة ابن درهم ذكر لمَرثية أخرى وهي للشيخ محمد المرزوقي. ولم أجد غيرهم، ولعلّ البقية ضاعَت أو لا زالت ضمن المخطوط.

[٩١] إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، نسخة المكتبة الشاملة، (ص٣٠٨).

وهذا والله أعلم وصَلَّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فَرِغْتُ من هذه المراجعة يوم الأربعاء ٢٦ محرم ١٤٤٤هـ الموافق ٢٤ أغسطس ٢٠٢٢م في مقرّ عملي بوادي الحنينية.